نقابة المهندسين
كتاب غير دورى

مقدمات جديدة
فى
مشاريع البعث الحضارى

د. سيد دسوقى حسن

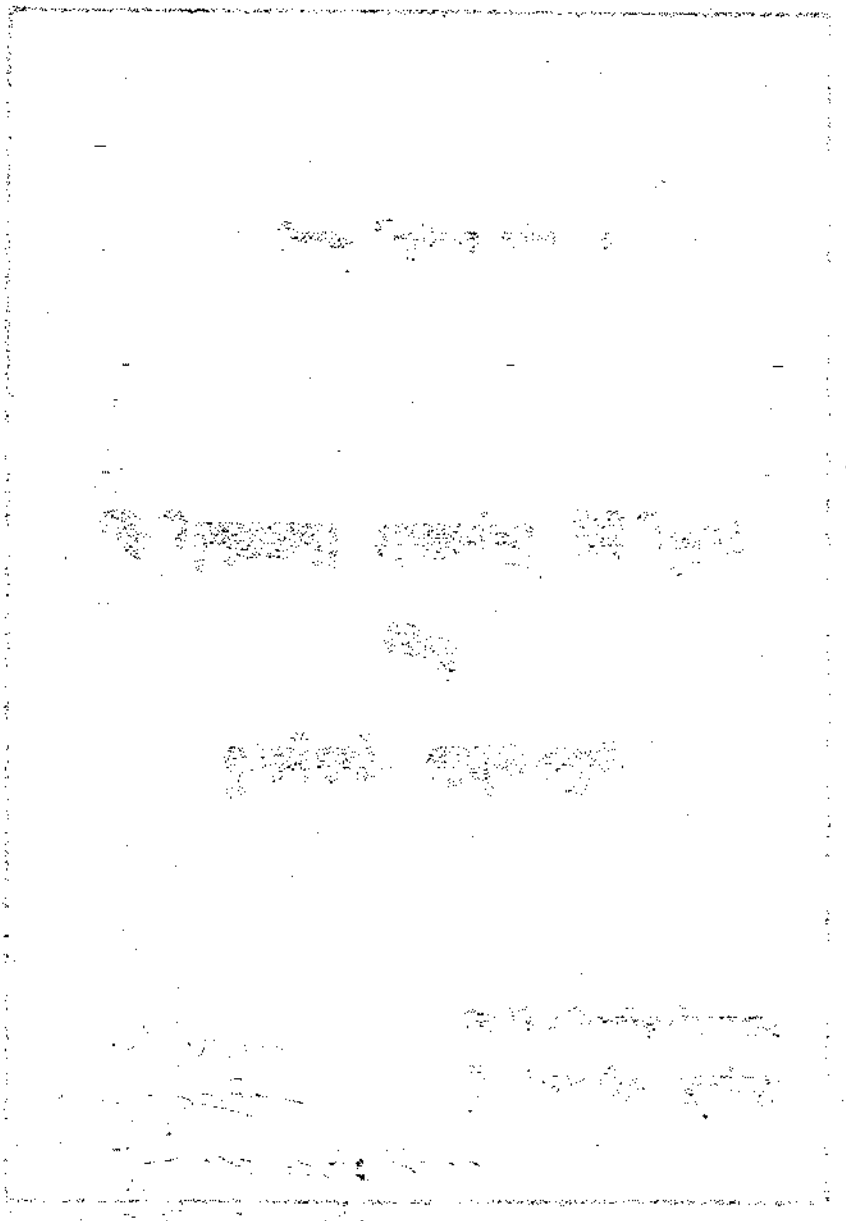

تمهيد

نحن ولاشك أمة فى مفترق طرق. فبعد أن كانت أمتنا مندفعة فى طريق التغريب مفتونة مسلوبة الارادة، تعالت صيحات الحكماء وأولى العزم تجذب الانتباه الى طريق التنمية الحقة والاصيلة والنابعة من عقيدتنا وقيمنا، ومشيرة فى الوقت نفسه إلى المهالك التى كان سيوردنا إياها المسلك الآخر. ومع تنامى الاهتمام بضرورة الحفاظ على الاصالة الحضارية لأمتنا، طرحت العديد من التساؤلات فى عقول العاملين المخلصين. كيف نخرج منّ حالة الازدواج الحضارى التى نجد أمتنا فيها؟؟ ازدواج بين وافد غريب وذاتى مغرب ، كيف يمكن تحقيق التوازن بين الحاجة الى الوافد وحتمية التكامل بين البشر وهو ما نؤمن به عقائديا، ونؤمن بأن العالم صائر اليه، وبين ما نسعى إليه من التنمية الذاتية والاستقلال عن الغير؟ وما هو التوازن بين الانعزالية وبين الانفتاح بلا ضوابط؟ وكيف نوازن بين طموحاتنا وامكاناتنا وكيف ننطلق من ذاتنا فى عالم تتشابك فيه العلاقات؟ ثم ما هى الفلسفة التى ينبغى ان تبنى عليها خطط تنميتنا؟ وما هو دور علمائنا ومهندسينا فى عملية بناء مستقبل حضارتنا؟ وكيف نبنى مؤسسات تستوعب علوم العصر وحضارته ونحتفظ فى نفس الوقت بخصوصيتنا الحضارية العقيدية؟ ان مثل هذه الأسئلة وغيرها تؤرق فكرنا فى نقابة المهندسين وتدفع بنقابتنا الى بذل الجهود لمحاولة تقديم اجتهادات فى سبيل الاجابة عليها وانارة الطريق أمام الباحثين عن السبيل الى فجر هذه الامة التى طال ليلها واشتدت ظلمته. والكتاب الذى بين أيدينا هو اجتهاد مشكور من هذا النوع.

واننا بنشر هذه الرسالة القيمة، لنرجو ان تنشط عقول وأفئدة للعمل الحضارى الذى تدعو إليه، وهى دعوة ليست للمهندسين فحسب ، وإنما هى لكل وطنى مخلص ذو توجه اصلاحى يريد به خدمة الأمة والمساهمة فى كشف الغمة. ونسأل الله تعالى ان يتقبل من الكاتب هذا الجهد وان يجعله فى ميزان حسناته وان ينفع به.

والله من وراء القصد

نقابة المهندسين

مقدمة

عندما بلغ الإمام المتحن أحمد بن حنبل في سجنه أن ابنه صالحا تقبل من الخليفة عطاياه أحزنه ذلك أشد الحزن وبكى وقال :

ماذا أفعل إذا أردت أمراً وأراد الله أمراً ...

ونحن ، في هذه الأيام الشداد تتوالى على أمتنا المصائب ولا نكاد نملك لها رداً ، ولا نرى في الأفق القريب بشائر تدل على عزم الأمة على الخروج من هذا المستنقع الرهيب .. ألا من بارقة أمل في أجيال جديدة يبزغ نورها من وراء الأفق رويداً رويداً ، وتكون هذه الأجيال أملنا في أن ترث الأرض ومن عليها وتقيم دولة الحق بعد أن طال أمد دول الظلم والبغي ؟! .

من كان يصدق أن الذي حدث للاتحاد السوفيتي سوف يحدث ؟.

ومن هذا الذي يصدق أن ما حدث للاتحاد السوفيتي سوف يحدث لا محالة لكل قوى الاستكبار العالمي ؟

إن كثيراً من المفسرين عندما يقرأون قول الله تعالى :

(الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم) (سورة الروم : ١-٥).

يقولون كلاماً جميلاً يتعلق بحزن المسلمين على هزيمة الروم وهم أهل كتاب وانتصار الفرس الوثنيين كأهل مكة في معركة كانت بين الفرس والروم قبل الهجرة بقليل .

ولكنني أرى آفاقاً أخرى لهذه الآية العظيمة أحس بها هذه الأيام بعد أن انفردت قوة باغية بالعالم وبعد أن اندحرت قوة أخرى كانت توازنها لتخفف من حدة البغي والتسلط على المستضعفين . فعندما غلبت الروم أصبحت كفة الميزان راجحة لصالح الفرس والخشية الحضارية هي أن تصبح هذه الكفة راجحة لفترة طويلة ، فتستبد هذه القوة الغاشمة بالمستضعفين . فيأتي القرآن ليبشر أن الأمر لايعدو أن يكون تداولاً للقوة لفترات قصيرة «بضع سنين» لاتستطيع قوى الاستكبار خلالها أن تنفرد بالعالم .. وإنما يعود قانون «تداول القوة» للعمل وتغلب الروم بعد ذلك .

هذا القانون في حد ذاته هو من نصر الله ومن إرادته العظمى في حماية المستضعفين .

والرائع هو أن هذا القانون يُعَطَّلُ في حالة واحدة .. وذلك عندما تقوم دولة الحق كما قامت دولة الإسلام .

في مثل هذه الحالة لاتحتاج الإنسانية إلى تداول القوة بين البغاة من أجل التوازن .. لإنه لابغي هناك من الأصل ، ولأن دولة الحق تقوم على شريعة غراء تحمي العدل وتقوم على البر والقسط وتهدى للتي هي أقوم .

لذلك فإنني بشير بين يدي تغيرات عالمية تعيد التوازن بفعل قانون «تداول القوة» .. منطلقاً في بشراي من سر آية الروم العظيمة .

لذلك فإن تسلط قوى الاستكبار وانفرادها بنا في هذه الأيام العصيبة سوف يتطلب مزيداً من الجهد الخالص لوجه الله في ميادين الحياة جميعها ، بغية بناء القوة الذاتية روحياً واجتماعياً وتقنياً ... وحينئذ يفرح المؤمنون بنصر الله القريب والبعيد .. القريب بإعمال قانون «تداول القوة» حتى يمنحنا سبحانه حصانة حضارية نعكف فيها على بناء القوة الذاتية ... والبعيد عندما يتولد عن هذه القوة الذاتية نظام دولي يقوم على البر والقسط ويهدي الإنسانية للتي هي أقوم .

وهذه الفصول التي بين يديك أخي القارئ هي كلمات ألقيها في آذان

المؤمنين أدعو الله أن يزيدهم بها قوة وثباتاً ، وهي كذلك امتداد لما بدأته من قبل في كتابنا «مقدمات في مشاريع البعث الحضاري» .. وإنني لأدعو الله أن أكون قد رجوت وجهه الكريم ، وأن أكون قد هُديت للتي هي أقوم ..

(ولله الأمر من قبل ومن بعد) ..

(والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لايعلمون)

سيد دسوقي حسن

١ ربيع الآخر ١٤١٢

١٠ أكتوبر ١٩٩١

شكر واجب

كان لأخي الأستاذ إبراهيم البيومي غانم فضل لاينكر في حثه إياى أن أجمع ما تفرق عندي من بحوث في كتاب واحد يكون امتداداً لكتابي «مقدمات في مشاريع البعث الحضاري» . ولقد عهدت إليه بجملة ماعندي من بحوث فعكف عليها في قراءة متأنية وظل يحرضني على مزيد من الكتابة من أجل التوضيح ومزيد من المراجعة حتى عزمت على عصيانه فاكتفى .. فله مني الشكر والدعاء إلى الله أن يحفظه هو وأقرانه من شباب علماء العلوم السياسية والاجتماعية .

كما أتوجه بالشكر لأخي الأستاذ هشام جعفر الذي ناقشني في كثير من هذه الفصول حين كتابتها فكان لحواره أثر في إعادة الكتابة من أجل مزيد من التوضيح .

(المؤلف)

الباب الأول

المنطلقات النظرية للبعث الحضارى

الفصل الأول : الهيكل الحضارى للتنمية

الفصل الثانى : الأخلاق الحضارية

الفصل الثالث : مقدمات فى التنمية الثقافية للأمة الاسلامية

الفصل الرابع : أسلمة المعرفة والمعرفة الاسلامية

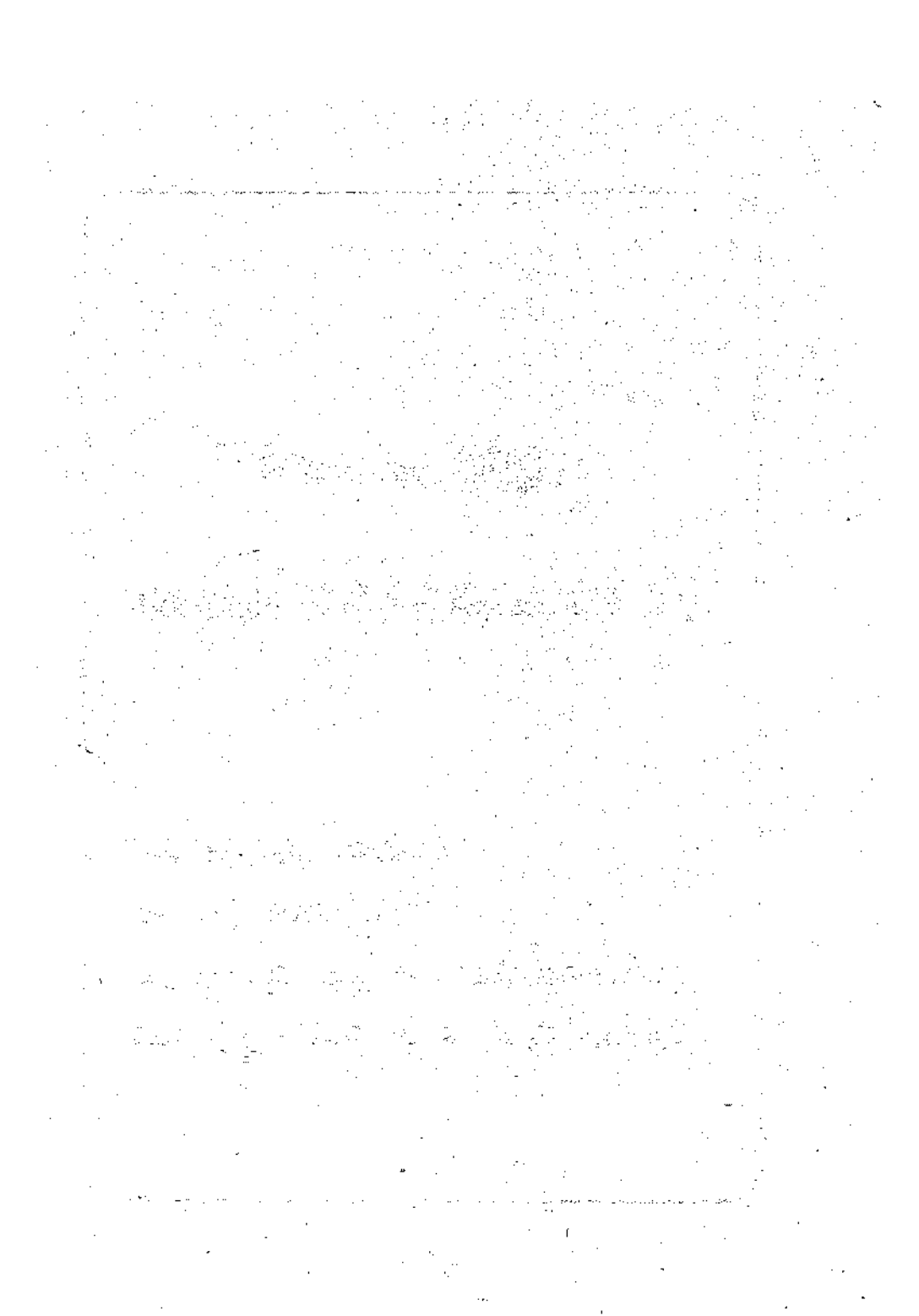

الفصل الأول

الهيكل الحضارى للتنمية

في عالمنا الإسلامي لا تخطط الشعوب لمستقبلها إلا قليلاً . وهي إن خططت تضع هياكل ناقصة ، ثم تسأل بعد ذلك أين الداء .. وتستمع حينئذ إلى العلماء وهم يشخصون أدواء أمتهم فتشعر بالمرارة والغثيان .

والداء هو في كثير من الأحيان في المنظومات المفقودة أو هو في المنظومات الناقصة ، ولو انتبهنا إلى ذلك لوضعنا أيدينا على كثير من الأدواء الشائعة . ومن هذه المنظومات الناقصة منظومة التنمية ، وهي منظومة يعهد بتصميمها في بلادنا لرجال الاقتصاد وهم وإن كان لهم لدوراً لا ينكر في مثل هذا التصميم ولكنه جزء من كل ، ومن ثم يأتي التصميم دائماً ناقصاً ، ونعاني من تدهورنا التنموي والاقتصادي معاً .

وأشعر أحياناً وأنا أقرأ في سورة النحل أن آية واحدة منها تعطينا الفلسفة الأساسية للتنمية .. إقرأ إن شئت قوله تعالى (**وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من**

بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) (سورة النحل الآية : ٦٨ ، ٦٩) فالله تبارك وتعالى قد ألهم النحل أموراً ثلاثة .. كيف يسكن ، كيف يأكل ، كيف يكون حراً ، ثم عقب المولى بأن هذه الأمور الثلاثة متى تحققت في حياة النحل فإن هذه الحشرة الصغيرة سوف تعطي الإنسانية والوجود عسلاً مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس فهل لنا أن نقول أن هذا هوالمفهوم النحلي للتنمية ... وما الذي يمنع الناس أن يكونوا كالنحل .. وما دور الدولة وأنظمتها المختلفة في هذا المنع .. ما دور نظمها القانونية ونظمها الاقتصادية ونظمها التعليمية ونظمها الاجتماعية في منع الناس من أن يكونوا كالنحل .. ومتى تخلى الدولة بين الناس وبين ترابهم الوطني ليتفاعلوا معه .. وما هي التنمية من جانب الدولة إن لم تكن هي التخلية بين الإنسان وترابه الوطني يتفاعل معه في ظل عقيدة موحية بالخير وشريعة منظمة لهذا الخير حتى يصنع بنفسه ولنفسه مسكنه وطعامه وشرابه وكل حاجياته في هذه الحياة الدنيا في حرية يتطلبها وجوده الإنساني.

فإذا وضعت الدولة من القوانين والأنظمة المتعارضة والمتضاربة في مجالات الحياة المختلفة ما يعوق الإنسان عن التفاعل مع ترابه الوطني فلا تسل بعد ذلك عن تنمية أو نمو وبقاء

وقد تفعل الدولة ذلك عن جهل وقد تفعله عن سوء نية من قبل بعض الفلاسفة من أهل الحكم .. ولكننا نحسب أن معظمه يحدث عن طريق الغفلة ..

ولهذا يستدعي الأمر أن تكون هناك منظومات حاكمة تحدد أهداف أجزائها المختلفة بوضوح شديد وتنشىء لنفسها نظماً للمراجعة والمحاسبة ولعلنا في هذا البحث نضع الهيكل العام للتنمية وارتباطاته المختلفة بعالم الأشياء وبالتعليم والتدريب . ولابد من جهد يبذل لتفصيل هذه العلائق المختلفة والتأثير المتبادل بين المنظومات المختلفة .

حسبنا الآن أننا أشرنا إلى أهمية ذلك وطرحنا علاقات أولية .. ولعلنا نلخص تصورنا للهيكل الحضاري للتنمية في الشكل الآتي :

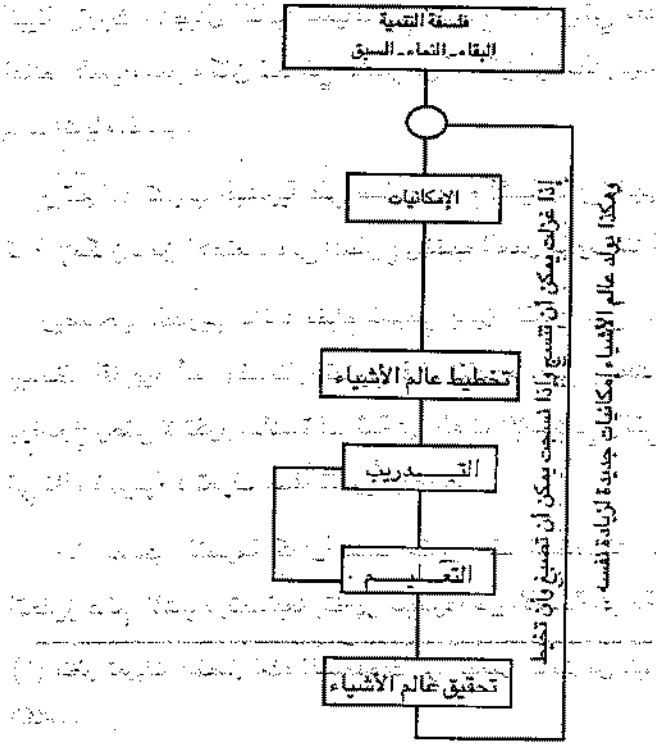

ملاحظات حول الهيكل الحضاري للتنمية

إذا نظرنا إلى الهيكل المرسوم نرى أن ترتيب الأشياء يبدأ من تصور فلسفة التنمية وتحديد أحد الخيارات الثلاثة : تنمية البناء أو تنمية النماء أو تنمية السبق[1] أو اختيار نسب من كل منهم تناسب حال الأمة أو المرحلة الآتيـــة .

ويتلو ذلك التعرف على الإمكانيات المادية والبشرية المتاحة مع الأخذ في الاعتبار مجموعة من الضوابط الحضارية حتى لا تستنفذ الإمكانيات وتلوث البيئة وتورث الأجيال التالية ضياعاً في ضياع ، ثم يأتي بعد ذلك تخطيط لعالم الأشياء سواء كان ذلك في الملبس أو المسكن أو المأكل وما حول ذلك من عالم أشياء خادم .

ويتلو ذلك تدريب البشرية على صناعة عالم أشيائها وإنتاجها مع التقليل - قدر الإمكان - من الاعتماد على الخارج وتنظيم العمل ما وسعنا الجهد .

ويصاحب التدريب دائماً نظام تعليمي يعين الناس على القدرة التدريبية ويلحظ القارىء أننا وضعنا التدريب قبل التعليم حتى يتحدد هدف التعليم بوضوح وحتى لا تكرر المأساة الدائمة في العالم الإسلامي والتي تطحن الناس في نظم تعليمية لا تعرف هدفاً تنموياً واضحاً .

فإذا مضت المنظومة كما أسلفنا نكون قد استعددنا استعداداً جيداً لتحقيق عالم الأشياء وتصنيعه وتظهر مجموعة من الأسئلة الهامة ..

---

(١) أنظر تعريفنا المفصل لهذه المصطلحات في الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا الكتاب .

من الذي يحدد فلسفة التنمية ؟ من الذي يرصد الإمكانيات المادية والبشرية في الأمة ؟ من الذي يخطط لعالم الأشياء ؟ من الذي يصمم وينفذ منظومة التدريب والتعليم ؟ من الذي يقدم على تحقيق عالم الأشياء ؟

أحسب أن هذا كله يتم الآن بطريقة عشوائية من قبل مؤسساتنا الوطنية ، أما المؤسسات الأجنبية المنتشرة في معظم بلادنا فإنها تقوم بالتدخل السافر في تحديد فلسفة التنمية عندنا وتسهم في خلق وتكريس حالة الخلل وعدم الاتزان بين حاجات الناس وإمكانياتهم .

ولقد كان ذلك مقبولاً في الزمن البطيء لأن الاتزان بين حاجات الناس وعالم أشيائهم وبين إمكانياتهم كان يتم على مهل ، لكن في زمننا المتسارع في خطاه لا يتم هذا الاتزان بقوى وطنية وإنما يحدد دائماً بأغراض استعمارية.

فحالياً يولد عالم الأشياء بقوى خارجية وبضغط إعلامي وبتخليق شرائح اجتماعية تتخذ لنفسها عالم أشياء أجنبي ثم أجهزة الإعلام ، وقود هذا العالم للناس فيتدافعون إليه . ويزيد من حدة هذا الفساد انفتاح مجتمعاتنا عالمياً لكل المنتجين في الدول الاستعمارية وغياب المنظومة القادرة على تخليق عوالم أشياء وطنية والدفاع عنها . أي أننا أمام عالم أشياء قهري وتنمية قهرية .. مكونات هذا العالم من المواد الطبيعية و المصنعة معظمها من الخارج . ومن ثم فإنه ينتج مزيداً من التبعية من خلال الحاجة المستمرة إلى الخارج.

إن طبيعة عالم الأشياء القهري تؤدي إلى تناقضات أساسية في حياة الناس وأدت في حياة شعوبنا إلى النزوح المستمر من القرية إلى المدينة حتى اكتظت المدينة واختنقت .. فالبطالة سمة أساسية لحياة المدن أو عالمنا الثالث

حيث المرأة في هذه المدن محشورة في شقة لا تستطيع أن تنتج ولو أرادت .. والرجل يذهب إلى المقهى .. لاعمل له ولو أراد .. الأطفال مسجونون في زنازين يسمونها شقق وأباؤهم وأمهاتهم هم العسكر السجانون .. أنهم لايسمعون آناء الليل وأطراف النهار إلا أصوات أهليهم آمرين ... لا تفعل ياولد .. اتركي يابنت ، الحذر من فعل أي شيء قد يؤدي إلى العذاب .

ولأن الناس قد حشروا قبل يوم الحشر في بيوت خانقة وحواري ضيقة فلابد أن تظهر مشكلات المجاري والنظافة والمياه والكهرباء ثم أخيراً مشكلات الهواء .. الهواء الخانق الملوث بالموت الزؤام .

وفي مثل هذه المدن الكئيبة والتي تنمو بطرق سرطانية لا تسأل عن العلاقة بين السكن والعمل .. فالساكنون في غرب المدينة يعملون في شرقها ، وأولئك الذين يعملون في جنوبها يسكنون في شمالها .. وهكذا تتحرك المدينة كل يوم من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وتهلك أطناناً من الوقود وآلافاً من المخلفات وتساعد على تشغيل آلاف من المصانع في البلاد التي فُرضت علينا نمط التنمية الذي نحاول اتباعه لاهثين .

انظر إلى مشكلة الزبالة مثلاً .. نفايات بيتك أين تذهب بها .. أنت تجهد نفسك في تنظيف بيتك وتلميعه .. ثم تلقي بزبالتك أمام بيتك ليلتقطها زبال ويقذفها بعيداً بعيداً عن المدينة في مزبلة عامة ، هذا إن حدث يكلف الأمة مالا تطيق ، ويضطرها إلى شراء أسطول من السيارات يحمل نفاياتنا إلى أماكن لم نكن بالغيها إلا بشق الأنفس . ذلك في الأحياء المحظوظة .. أما في بقية الأحياء فتظل الزبالة ملقاة أمام البيوت في الشوارع تعبث بها القطط والكلاب

فتنتشر في الطريق لتزيده مرضاً على مرض .. وربما حملها الهواء أو الأقدام مرة أخرى إلى بيتك ، فتظل تجهد نفسك فى دفعها خارجة في دوامة حضارية مضحكة مبكية .

ـ ولوكنت تعيش في بيت متسع كما كانت تعيش كثير من الأسر الممتدة في قرانا وصحرائنا ، في مثل هذا النمط من البيوت يوجد مكان يعيش فيه الحيوان والطيور .. بل هناك مكان خصص لزراعة ما تحتاج من الخضار ومن ثم ستتحول زبالتك إلى لحم طرى شهي .. أنت تلقي بقشرة البطيخ فيلتقطه البط ليصنع لك منه لحماً ويلتقطه البقر ليصنع لك منه لحماً ولبناً خالصاً سائغاً للشاربين .. حتى غائطك تخلطه بالتراب فيصبح سماداً طبيعياً لزرعك .. ليس كهذا السماد الكيماوي الذي يفسد أرضك ويذهب بخصوبتها مع الأيام .

والحقيقة أنه لا تثريب علينا أن تكتظ بعض المدن بهذا النمط التنموي في غفلة من الفهم الواعي على مستوى الدولة والأفراد ، على أمل أن نفيق ونقلع عن الاستمرار في هذا الطريق ، ولكن الذي يحدث هو أننا مستمرون بقوة ، حكومة وشعباً فى المضي في هذا الطريق حتى الكارثة .. ولقد بدأت الكارثة بآلاف العاطلين من خيرة شباب الأمة الذين عطلوا قهراً [1] عطلهم نموذج التنمية المستوردة إننا نجد في مجال الصناعات والأعمال الهندسية ـ على سبيل المثال ـ أن الأجانب هم الذين يقومون بالأعمال ويشغلون الوظائف في

---

(١) من العجيب أن بلداً مثل مصر كان بها خلال عامي ٨٦ ، ١٩٨٧ حوالي ٤٠ ألف (أربعون ألف) باحث من الحاصلين على درجة الماجستير والدكتوراة في مختلف التخصصات والفروع العلمية ومع هذا فهم عاطلون لا يجدون فرصة عمل (راجع الإحصائية المذكورة بتقرير مجلس الشورى المصري عن البطالة سنة ١٩٨٧) .

حين يقف عندنا جيش من حملة المؤهلات الهندسية لا يجدون لهـــم عمـلاً [٢] . وهذا هو ما نعنيه من التنمية المستوردة تلك التنمية التي لا تنظر فيمابين أيدينا وما خلفنا من مواد ولكنها تتطلع إلى أرض بعيدة لا قبل لنا بها .. وصدق الله إذ يقول :(**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب**) (سورة النور الآية ٣٩)

ولا يظن امرؤ عجول أننا ندعوا إلى نوع الحياة التي كانت سائدة في قرانا من قبل تلك كانت معيشة تتناسب مع زمنها .. وإنما ندعوا إلى نمط تنموي يستهدف عيش الإنسان عيشة كريمة .. عيشة يستخدم فيها أقصى ما يستطيع من جهد وأقصى ما يستطيع من إمكانياته ، عيشة يصنعها هو لا تصنع له .. عيشة يتفاعل فيها بأقصى قوة مع ترابه الوطني في ظل عقيدة مشجعة وشريعة منظمة .. عيشة يتفسح فيها في بحبوحة أرضه الواسعة ولا يتراكم فيها في مدن كئيبة مكتظة .

وفي المثال الذي ضربناه من قبل عن موضوع الزبالة بين المدينة والقرية يمكن استخدام الطرق الحديثة لتحويل الزبالة إلى طاقة منتجة فمثلاً يمكن استخراج البيوجاز من هذه المخلفات ويمكن استخراج نوع من السماد أحسن بكثير من سماد القرى ومن السماد الكيماوي .. ولكن ذلك يستدعي نظاماً للإعمار يختلف عن النظام السائد اليوم في مدننا الكئيبة .

---

(٢) تشير الإحصاءات إلى أن عدد خريجي الهندسة المتعطلين في الفترة من سنة ١٩٨١ إلى سنة ١٩٨٧ قد بلغ ٤٠,٠٠٠ (أربعين ألف مهندس ومهندسة) انظر : ندوة البطالة بين المهندسين (عقدت بجمعية المهندسين المصرية ٣١ ديسمبر ١٩٨٨ ـ ١ يناير ١٩٨٩) ص ٤٩ .

التخطيط لعالم الأشياء

إذا حاولنا الآن أن نضع مخططاً عاماً لعالم الأشياء الذي نحتاج إليه فإننا نستطيع أن نحدده في الآتي :

(١) اختيار فلسفة التنمية [بقاء أم نماء أم سبق]

(٢) المنتج ... توصيف عام لمنتج ضروري ومدى الحاجة الحضارية له عملياً وقومياً وعالمياً .

(٣) المواد المستخدمة وما هي نسبة المواد المحلية إلى المواد المستوردة . وما هي احتمالات تقليل المواد المستوردة واستبدالها بمواد محلية أو مواد موجودة في منطقة صديقة من مناطق الكيان الاجتماعي الحضاري الإسلامي والجدوى الاقتصادية والحضارية وراء أي اختيار .

(٤) طرائق تشغيل المنتج . طرائق يدوية لاتحتاج إلى ميكنة (تعظيم هذه الطرائق) طرائق تحتاج إلى ميكنة مع دراسة احتمالات التشغيل المختلفة والجدوى الاقتصادية والحضارية لأي اختيار .

(٥) التدريب على تشغيل المنتج . توصيف تشغيل المنتج توصيفاً دقيقاً مع دراسة تقسيم عمليات التشغيل إلى أشياء بسيطة يمكن التدرب عليها بسهولة .. هل يحتاج التدريب إلى مناخ تعليمي عام وقدر من التعليم معين على مستوى المتدرب مثلاً .

(٦) التعليم من أجل التدريب . نوعية التعليم المطلوب ومستواه .

(٧) منظومة فنية واقتصادية لتصنيع المنتج وتسويقه .

ونقترح هنا أن نعمل قاموس بعالم الأشياء المرجو على مستوى الحي أو المنطقة أو الدولة حسب نوع التنمية وحسب مجالها من حيث هي تنمية شاملة أم تنمية محلية .

ولنضرب مثالاً مفصلاً لما سبق وهو مثال اللباس

(١) فلسفة التنمية .. اختيار تنمية البقاء مثلاً حيث لا استثمارات ومن ثم لا مصانع ضخمة ولا قروض ولا فوائد وإنما ينبغي أن يتم كل شيء بجهد ذاتي ودون الاعتماد على الخبرات الأجنبية .

(٢) المواد المستخدمة .. القطن ـ الكتان ـ الحرير ـ الصوف .

(٣) طرائق تشغيل المنتج والإمكانيات المتاحة ووجود معرفة بعمليات الغزل والنسيج والصباغة والحياكة لنماذج وطنية من الملابس . ووجود معرفة بتصنيع آلات بسيطة للقيام بهذه العمليات المختلفة ، رغبة وتوجه لدى الناس للعمل اليدوي ، رغبة وتوجه لدى الناس لاتخاذ اللباس الوطني وصدود عن التقليد .

(٤) وجود منطوق للتدريب . نقوم بتقسيم العمل وصولاً به إلى حرف يدوية صغيرة ثم عمل نظام لتوزيعه على الناس ليدء شرارة الأسر المنتجة والتي يمكن أن تنمو بعد ذلك ذاتياً .

(٥) تعليم الناس التعليم الكافي لخدمة المنظومة التدريبية والتصنيعية .

(٦) تخليق عالم الأشياء الضروري لبدء الصناعة المطلوبة (مثل صناعة الأصباغ والأنوال) .

(٧) بدء تصنيع عالم الأشياء من خلال منظومة تقوم بدور الشرارة ثم يترك الأمر للنمو الذاتي .

الأصول الإسلامية لنظريتنا التنموية

قلنا أن التنمية من وجهة نظر الدولة هي التخلية بين الإنسان وترابه الوطني ليتفاعل معه في ظل عقيدة موجهة بالخير وشريعة منظمة لهذا الخير ليصنع لنفسه وبنفسه مسكنه ومطعمه ومشربه وكل احتياجاته في هذه الدنيا في حرية يتطلبها وجوده الإنساني .

ولقد ذكرنا من قبل أن آية سورة النحل هي التي أوحت إلينا ببعض هذه المعاني ، ونضيف أن لكل تنمية مناخاً عقيدياً تنشأ فيه وفكراً سلوكياً يصبغ تفاعل الإنسان بترابه الوطني وشريعة تحدد أطر هذا التفاعل .

ومن هنا يأتي دور الإسلام كعقيدة وسلوك وشريعة فالعقيدة مطلوبة لتحديد نظرة الإنسان إلى الكون والحياة والناس من حوله ... وهل هي عوالم صديقة نتفاعل معها بإحسان أم هي عدو نقهره .. وهل إعمار الأرض واجب على الإنسان بحكم عقيدته أم أنه أمر اختياري .

وما علاقة الإعمار بالترف وأين الوسيطة بين إعمار الأرض وترف الناس .. وما معنى إعمار الأرض .. هل هو إفناء كنوزها المدفونة وتدمير بيئتها المحيطة أم أن هناك حلالاً وحراماً في كل هذا الذي ذكرناه .. !

تحضرني هنا قصة موسى والعبد الصالح في سورة الكهف عندما استطعما أهل قرية فأبوا أن يطعموهما فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه

الرجل الصالح فيقول موسى لوشئت لاتخذت عليه أجراً ... فيقول له الرجل الصالح في تفسير هذا الحدث (**أما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً**) (سورة الكهف الآية ٨٢)

فأمر الله أن يبقى الكنز خافياً حتى يستطيع أصحابه أن يستخرجوه بقوة سواعدهم وبقوة علمهم أي أن الإرادة الإلهية شاءت أن يختفي الكنز حتى يبلغ الغلامان أشدهما من قدرة على الاستخراج سواء كانت هذه القدرة قدرة بدنية أو قدرة علمية .

فإذا نظرت اليوم ورأيت علماء المسلمين وقادة لهم يتسارعون وراء الأمم القوية ليكشفوا هم كنوزنا ويستخرجوها لأنفسهم ويتركوا لنا الفتات فاعلم أن هذا سلوك يحرمه الفهم القرآني أشد التحريم وأن هذا ليس من التنمية الإسلامية في شيء .

والانتشار فضيلة إسلامية (**ياأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**)

(سورة الجمعة الآية ٩ ، ١٠).

فإذا كان التفسح فضيلة في المجالس وهي بطبيعتها مكتظة ، فما بالك

بالتفسح في العيش في الأرض وهي ذلول رخية .. (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) (سورة الملك الآية ١٥). والذين يكتظون في الأرض يتدافعون بالمناكب فى كل شيء فتنشأ بينهم أمراض الاكتظاظ ويكثر بينهم الشجار ويستدعى ذلك ضبطاً شديداً من قبل الإدارة يتحول مع الأيام إلى قهر واستعباد ويقلص حرية الفرد رويداً رويداً حتى تصير إلى زوال .

ومن ثم فإن الدولة التى تصوغ قوانينها ونظمها بحيث تقيد انتشار الناس وتدفعهم دفعاً إلى الاكتظاظ هى دولة حائدة عن مفهوم التنمية فى الإسلام .

إننا نقرأ منذ الطفولة سورة قريش (**لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**) يقول الإمام الألوسي فى تفسير الإيلاف :

الإيلاف على ما قال الخفاجي مصدر ألفت الشيء وآلفته من الإلف ، وهو كما قال الراغب : اجتماع مع التئام .

ويضيف الشيخ حسنين مخلوف معنى آخر فيقول : إيلاف : مصدر ألفت فلانا الشيء إذا ألزمته إياه . فكأن الله يمن على قريش أنه قد هداهم إلى إيلافهم نوع التنمية الذي كان مناسباً لهم وهي هذه الرحلات المستمرة في الصيف والشتاء . ويوجههم أن يتوجهوا إلى الله بالعبادة ، ويعلم الإنسانية أن التنمية القاصدة إلى ربها هي مصدر الإطعام من الجوع والأمن من الخوف .

والدولة الراشدة هي التي تتعلم هذا الدرس من قرآن ربها . فتضع نصب

أعينها كيف تخترع من الوسائل ما تجعل الناس يألفون تنمية مختارة ثم تقوم هي بحماية هذه التنمية القاصدة من مكر الأعداء . ويمكن أن نقول أن دور الدولة يتلخص في الأمور التالية :

ـ التفكر في نوع التنمية الراشدة بالنسبة للأمة .

ـ إيلاف الناس هذا النوع من التنمية من خلال الإرشاد والتعليم والتدريب .

ـ حماية المنجزات التنموية من مكر أعداء الأمة ومن العقبات الكؤود الداخلية حتى يسلك الناس سبل ربهم ذللاً من أجل بناء تنميتهم بأنفسهم ولأنفسهم .

وسورة قريش في مصحف أبي ابن كعب تقرأ هي وسورة الفيل كسورة واحدة وكأننا نفهم من دمج السورتين معاً أن الله وقد كفى الناس شر الظالمين وجعل كيدهم في تضليل أنه سبحانه ألهم نوع التنمية القاصدة .

فإذا قامت الدولة بهذا الدور الثلاثي الأطوار فعليها حينئذ أن تخلي بين الناس وبين الأرض يتفاعلون معها في حرية وعدل .

والتنمية الحقة هي التي تحقق وسيطة بين فضيلة الانتشار في الأرض المظلوبة من أجل الإعمار وبين قدرة الدولة على السيطرة الأمنية واستدعاء الأطراف عند الخوف من غير أن يستحق الإنسان في اكتظاظ مرضي أو أن يفقد الانتماء في انتشار تخلخلي يفقده الارتباط بالدولة وفكرتها .. والقصد والاقتصاد هما جوهر التعامل الإنساني مع البيئة المحيطة في النظرة الإسلامية عموماً .

(**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين**) (سورة القصص: الآية ٧٧)

فابتغاء وجه الله وعدم الإفساد فى الأرض والإحسان إلى من حولك وأخذك نصيبك كريما من الدنيا هو القصد الذى يبتغيه الإسلام لك .. ولكنك فى كل هذا (**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**) (سورة الإسراء: الآية ٢٩)

وإنه ينبغى عليك أن تقتصد ولو كنت على نهر جار . وما عال من اقتصد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والترف ظاهرة محتقرة فى القرآن الكريم وهى من أمراض الحضارات التى تعمل فى النهاية على تقويض ما أنتجه الإنسان فى فترات السمو الروحى والنمو العقلانى .

ولذلك ينبغى أن يخطط المجتمع المسلم لتنمية بحيث لا تؤدى بطائفة من هذا المجتمع أو بالمجتمع بأكمله إلى نزيف مهلك فإذا كان الخيار فى تخطيط منظومتنا التنموية بين تكثيف العمل أو تكثيف الإنتاجية اخترنا تكثيف العمل . ذلك أنه يمكن أن نكثف الإنتاجية من خلال الميكنة بينما نكثف العمل من خلال جهد الناس ..

وفى ظروف مجتمعاتنا حيث يستدعى تكثيف الإنتاجية رأس مال ضخم لشراء مصانع من غيرنا يصبح الخيار واضحا لا لبس فيه .. ألا وهو خيار تكثيف العمل

ولأن الإسلام يعظم الوسطية فى الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا من مأكل ومشرب وملبس ومسكن بينما يعظم الاستعداد بالقوة لإرهاب أعداء الله فى الأرض فينبغى على مخططى التنمية أن يأخذوا ذلك فى الحسبان فيعيش الناس فى حياتهم بتنمية البقاء متأسيين بسيرة سيد الخلق «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً» بينما كان هذا النبى الأمى عليه أفضل الصلاة والسلام يرسل البعوث ليتعلم المسلمون صناعة المنجنيق.

من أجل ذلك ينبغى على المسلمين أن يحرصوا على تنمية النماء أو تنمية السبق فيما يختص بأمور الدفاع وإرهاب أعداء الله .. إن توجيه الله للمؤمن فيما يتعلق بسعيه فى الحياة ليحقق أكثر من احتياجاته الأساسية قد جاء فى القرآن فى سورة الرعد فى آية عظيمة تقول : (**أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار إبتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال**) (سورة الرعد : الآية ١٧)

فالحلية والمتاع زبد يذهب جفاء فى رحلة الإنسان الكونية .. ويبقى دائماً ما ينفع الناس فى الأرض .. يبقى للناس فى رحلتهم الممتدة ..

إن الله تبارك وتعالى لا يمنع الناس أن يتزينوا بالحلى وأن يستمتعوا بالطيبات ولكنه يجمل لهم القول وينبئهم بالحقيقة الأزلية .. إن هذه الحلى وهذا المتاع زبد يذهب جفاء فى رحلتهم الكونية الممتدة أبد الآبدين . والرسول عليه

أفضل الصلاة والسلام لم ينه هذا الصحابى الذى ولد يطيل المكث فى زخرفة داره ولكنه ابتسم وقال مداعباً .. الأمر أعجل من هذا ..

وعلى كل حال مطلوب من الإنسان المسلم أن لا يفسد بيته ولا ينضب خزائن أرض الله من طاقة إبتغاء حلية أو متاع .. أو ليست الطاقة هى مصدر هذه النار التى يوقدون عليها ابتغاء حلية أو متاع .

الفصل الثاني

الأخلاق الحضارية

في فترات الانحسار الحضاري للأمة يهتم الصالحون منها بالجانب الشخصي الأخلاقي ويهملون الجوانب الحضارية إهمالاً بيناً ، ولأننا والحمد لله نستعد لمد حضاري قريب فإنه ينبغي أن نبذل جهداً خاصاً في التعرف على الجانب الحضاري الأخلاقي ونعض عليه بالنواجذ ونتواصى به جميعاً .. وعلى الله قصد السبيل .

ولعلي أوجز بعض جوانب الأخلاق الحضارية في سباعية حيث أجدني دائماً أصوغ أفكاري في سَبْعِيَاتٍ ، هل أقول كما قال صديق العمر الدكتور يوسف القرضاوي :

سبعية والسبع تحلو في فمي أبداً حتى لكدت يقال لي ذا السبع

على غرار قوله :

نونية والنون تحلو في فمي أبداً حتى لكدت يقال لي ذا النون

١ ـ البر بالأوطان هو الامتداد الطبيعي للبر بالآباء

إن هذا المبدأ الأخلاقي سوف يعيد إلينا الشاردين من أبنائنا في أرض الله ، فكل من لقي شدة يبحث عن غير ذات الشوكة ويتمنى أن تكون له . نحن

تربي وننمي طاقاتنا العلمية لغيرنا .. صحيح أن القوى الطاردة لهذه الطاقات ضخمة ومتعددة لدرجة أننا سمينا واستحدثنا وزارة لهجرة الكفاءات ، وأضيف إلى هذا وهم شائع أن كل إنسان حرفي أي أرض يهبها نفسه وجهده ، ولامانع عند هؤلاء أن يجعلوا ذلك جزءاً من الاعتقاد الديني بل يجعلون من مخالفة ذلك شركاً .

وهذا كله من ظلال الضعف المستخدم أمام الشوكة (**وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**) (سورة الأنفال : من الآية ٧) كما أن الهجرة لاتكون إلا لواجب .

أعرف زميلاً لي عاد من البعثة ومكث عاماً واحداً ثم ولى الأدبار الى أمريكا ، زرته مرة هناك رأيته يعمل ليل نهار وقد أصبح نجماً علمياً لامعاً ، فسألته وهو الرجل المتدين : إلى أين ياأخي ؟ .. وإلى متى ؟ قال : إلى أن أصبح أستاذاً في الجامعة الفلانية ، قلت : تبا لك وتبا لتلك الجامعة .

هل طالبك ربك أن تخفض جناحك لغير والديك ؟ إن البر بالأوطان - ولو كانت مشركة - والحمد لله هي ليست كذلك - هو الامتداد الطبيعي للبر بالآباء ولوكانوا مشركين ..

ويذكرني ذلك برسالة أرسلها لي أستاذ باكستاني حائز على جائزة نوبل في العلوم يدعوني فيها للتعارف وإلى زيارته وأرسل معها محاضرة ألقاها في إحدى المناسبات قرأت فيها أنه خير بين باكستان والعلم فاختار العلم على باكستان .

أو هذا الطبيب الذي زارني مرة وكان معنا مجموعة من الأصحاب فقدم

نفسه هكذا : أخوكم فلان .. مسلم .. ولدت في مصر ، وقد نسى الصديق أن المسلمين الأوائل كانوا يتسمون بأسماء بلادهم ولا تثريب عليهم في ذلك فهذا هو البخاري والغزالي والسمرقندي والترمذي .....

كل هذه الصور هي صور عقوق حضاري ينبغي لنا أن نستعيذ بالله منها .

على أن بر الأوطان لايعني بالضرورة البقاء فيها ، وإنما يعني مساعدتها في الخير والعمل على أن يعيش أهلها عيشة طيبة في ظلال الإسلام الوارف الظلال .

ونحن قد استخدمنا لفظة البر التي استخدمها القرآن في الحديث عن الآباء ، حيث لم تستخدم لفظة الطاعة مثلاً ، ومفهوم الطاعة مفهوم شائع في الحديث عن الآباء وهو مفهوم خاطىء ، بل إن لفظة الطاعة جاءت بصيغة النفي : (**وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما ... وصاحبهما في الدنيا معروفاً** ... (سورة لقمان من الآية ١٥) .

والمطلوب تجاه الأوطان هو البر وليس الطاعة العمياء وترجمة هذا البر إلى المصاحبة بالمعروف والجهاد من أجل أن تحيا هذه الأوطان حياة طيبة جزاء ما قدمت لك من معروف في حياتك من خلال مؤسساتها التي أرضعتك العلوم ومهدت لك السبيل ووفرت لك الأمن .. باختصار أنت تحمل في عنقك ديناً لها ...

ولاتحتج علينا متفلسفا بأن الإسلام دين عالمي وكذلك سعيي في الحياة .. اختار الوطن الذي أحب وأعيش حيث أريد .. فذلك سبيل جائر .

والقصد هو أن تدرك الفرق بين « عالمية الإسلام » و« خصوصية الواجب» .

نعم الرسالة عالمية ولكن واجبك أنت كفرد خصوصي ،حتى إذا أحيط بك وبين العمل على رفعة وطنك وهاجرت مضطراً ينبغي أن يظل الأمر في السويداء من قلبك .. رغبة كامنة أن يحيا قومك حياة طيبة وأن تسعى في سبيل ذلك ما وسعك الجهد وأسعفتك الحيلة .

٢ ـ التأهب لفروض العين وفروض الكفاية

من الظواهر الملفتة أن الناس أصبحت تتدافع إلى التخصصات والأعمال المختلفة اندفاع رزق وليس اندفاع واجب ، ومن ثم فما حققوا رزقاً ولا أدوا واجباً ..

والأصل في الأشياء أن الرزق مكفول في السماء (وفي السماء رزقكم وما توعدون) (سورة الذاريات الآية ٢٢) .

وأذكر أنه كانت تتملكني الرغبة الشخصية لدراسة الحقوق أو دار العلوم حين حصلت على الثانوية العامة حتى لقيت أستاذاً لى في مدرسة الدعوة هو الأستاذ محمود يونس رحمه الله فقال لي : «نحن في حاجة إلى مهندسين يصنعون لنا طائرات وصواريخ ، فكر في الهندسة خير لك ولأمتك» .

وكان أن توجهت إلى الهندسة التي لم تخطر لي على بال قبل ذلك ثم إلى الطيران والصواريخ .

إن هذا التأهب لفروض العين وفروض الكفاية يحتاج إلى همة حضارية تصقل بالتربية وبالقدوة المنتشرة ، وأذكر في هذا المقام قصة الإمام الشهيد حسن البنا التي توضح قدر التأهب الحضاري الذي كان يمتلىء به صدر هذا الرجل العظيم :

« في امتحان الليسانس .. حسن يمتحنه اثنان من أساتذته .. سأله أحدهما كم تحفظ من الشعر قال ١٨ ألف بيتاً . قال : هل تحفظ معلقة طرفة بن العبد ؟ قال : نعم . قال هل تذكر فيها بيتا أعجبك ؟ قال : نعم قال : ما هو ؟ قال:

إذا القوم قالوا من فتـــى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

فهاج الشيخ وماج وخلع عمامته وألقاها على المكتب وسأله زميله الآخر : ما الذي حملك على هذا ؟ قال : وقفت نفس موقف هذا الفتى أمام الإمام محمد عبده وسألني نفس السؤال فظللت أذكر له بيتاً من هنا وبيتاً من هناك والشيخ يعرض عني وفي النهاية قال أتذكر قصيدة طرفة ولا يذكر قوله :

إذا القوم قالوا من فتـــى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وهذا الفتى سألته نفس السؤال وأجاب من أول مرة ، إنها الهمة العالية.

ولعل من أهم واجبات العمل الإسلامي أن يستثير همم الناس ويشحذ فاعليتهم ويضعهم في بدايات العمل الحضاري الذي ينبغي أن نبين لهم آفاقه من خلال الوعي المستنير لخريطة الأعمال الحضارية .

٣ ـ الوعي المستنير بخريطة الفروض الحضارية

نحن في حاجة ماسة إلى استنارة بطبيعة الفروض الحضارية حتى يتدافع إليها الناس ، حيث يتدافع ذوو التوجهات الإصلاحية في بلادنا كثيراً إلى أعمال تأتي في نهاية الخريطة وينسون أعمالاً تأتي أعلاها ، جماعات كاملة تقام لتقاتل المسلمين في أمور جاء فيها الشرع بسعة ، ورغم ذلك يريدون أن يحملوا الناس على آراء بعينها ، فالنقاب أو الموت ، رغم أن في الشرع سعة . ولو قالوا للناس الحجاب أو النقاب لكان خيراً لهم ولمجتمعاتهم ، وإذا كانت وحدة المسلمين غاية في ذاتها فان بعض الجماعات تقوم على التمييز المذهبي لشحذ الخلاف بين المسلمين . كما أننا نرى في الساحة جماعات تقوم على الفرقة السياسية وتدفع إليها المسلمين دفعاً ، وإن الاندفاع العابث في تسييس هذه المجتمعات أمر في منتهى الخطورة ، فنحن في حاجة إلى دفع هذا المسلم في معركة البقاء والنود عن حقه في الحياة ، ولزم أن يكون هذا الإنسان منتجاً ليتجاوز الأزمة من جذورها .. فلن يفكر جائع يعضه الجوع ...

ونحن نقول أن المسلم ينبغي أن يضع أولويات عمله واضعاً في الاعتبار قدرته الخاصة ... ثم أي الأعمال أنفع للمسلمين وأسرع في اقتناء الخير .

أحياناً يضع المسلم لنفسه هدفاً ضخماً لايقدر عليه ، ويتعلل به عن الأعمال المناسبة لقدرته ، ثم في النهاية لا ينجز شيئاً صغيراً أو كبيراً ، ويتحول هذا الانسان المسلم رويداً رويداً إلى كتلة كلامية لاتسمن مجتمعاتها ولا تغنيها من جوع .

تذهب إلى أقصى النجوع والعزب فترى مسلمين يتقطع قلبك على حالهم

البائس الحزين وهم يحاورونك في المؤامرة العالمية ضد الإسلام ، ويجادلونك عن نصيب كل دولة كبرى في المؤامرة وينسون أن جزءاً من عملية إبطال هذه المؤامرة في أيديهم .. إنهم لا ينتجون طعامهم ولا كساءهم وهم عالة على دولة بائسة استسلمت للكيد الاستعماري .

ماذا عليهم لو أنفقوا أوقاتهم في إنتاج طعامهم حتى يستغنوا عن الاستعمار أولاً .

والحق أننا ينبغي أن نفهم طبيعة التحدي الحضاري ومايستلزمه من أعمال . وبالطبع تختلف طبيعة التحديات من بلد إلى بلد . فطبيعة التحدي في مصر تختلف عن طبيعة التحدي في أمريكا .

ففي بلد كأمريكا حيث يعيش الناس في ظل نظام اجتماعي قاهر وحيث تتألق الحضارة الغربية في أبهى صورها ، يواجه المسلمون تحدياً مختلفاً تماماً عن التحدي الذي يواجهه مسلم يعيش في بلد عربي كمصر أو السعودية في بلد كمصر يواجه المسلم تحدياً ذا شقين .. شق يتعلق بمواجهة الاستعمار وشق يتعلق بعمليات البناء الحضاري .

بينما يواجه المسلم الأمريكي في وضعه الراهن تحدياً يتلخص في كيف يشحذ فعاليته الروحية ليواجه الضغط الاجتماعي الذي يحيطه من كل جانب وليصبح منارة إشعاع سلوكية تخطف أبصار من حوله إلى الفكرة الإسلامية الكامنة خلف هذا السلوك المضيء .

في زيارة للولايات المتحدة خلال مارس ١٩٨٩ ألقيت محاضرات تتعلق بالبعث الحضاري الإسلامي لطلابنا الذين يدرسون هناك ، ولكنني اكتشفت أنه

ينبغي أن أحاضر أيضاً الجاليات المهاجرة هناك والتي تعاني أشد المعاناة من القهر الاجتماعي الأمريكي والذي يمارسه المجتمع القوي على عقلية وسلوك هذه الجاليات وخاصة الأجيال الجديدة .. وعجبت أن العاملين في حقل الدعوة الإسلامية حملوا إلى هذه الجاليات كل ما تعانيه شعوبنا في الوطن العربي من مشاكل ونسوا مشاكل هؤلاء الحقيقية ... واضطررت أن أبذل جهداً خاصاً في محاولة تفهم الظواهر الاجتماعية على أمل أن أوجه إليها أنظار بعض العاملين في شؤون الدعوة هناك .

٤ ـ الاستعلاء النفسي : (الثقة في الله)

إن الاستعلاء النفسي الذي ينبثق من عمق إيماننا بعظمة القيم الحضارية التي نؤمن بها والتي ينبغي أن نقيم عليها حضارتنا المرتقبة هي الأساسيات التي سوف نقاوم بها ظاهرة « القابلية للاستعمار » .

وصف الجبرتي يرحمه الله الجيش العميل الذي كونه المعلم يعقوب أيام الاحتلال الفرنسي وصفاً ينبىء عن احتقار الأمة لهم « فهم نفر اتخذوا زي الفرنجة ولكنك كنت تعرفهم بكلاحة مناظرهم ونتن رائحتهم » أو هكذا تصور الشيخ الجبرتي .

وعندما عملت فترة في دولة خليجية كنت أرى كل يوم رجلاً عربياً ومعه شقه الأجنبي .. ازدواجات تمتلىء بها المصالح العامة والخاصة في عملية نهب باسم التقنية القومية .

فلما عدت إلى مصر رأيت عجباً .. جيشاً من العملاء للشركات الكبرى في

العالم ، كل عملهم أن يتجسسوا لهم عن السوق المصرية ويعلموهم بنية الحكومة قبل أن تنوي ، جيش فيه كل الناس كافرهم وصالحهم وكأن الكفر والصلاح لاعلاقة له بالتنمية الوطنية ، وأصبح الناس يتسابقون للحاق بجيش الشركات الكبرى والصغرى.

ماذا نسمي هذا السلوك العام ؟ هل هناك تسمية تليق به غير التجسس المقنن ؟.

ياقوم نحن في حاجة لأن نقهر القابلية للاستعمار في نفوسنا ، ونصبر على الشدة التي نعيشها ونصنع حياتنا بأيدينا .. وأن القابلية للاستعمار تبدأ دائماً بتبني منتجاته ... وأن أول السيل قطرة.

ويجب ألا يختلط في أذهاننا الاستعلاء النفسي بظاهرة « الجاه الكاذب » أو بظاهرة « التطفيف الاجتماعي »

٤ ـ ١ – الجاه الكاذب

تأثرت في صباي بسيرة بعض السلف الصالح الذين كنت أقرأ عنهم في مجلة « المسلمين » التي كان يصدرها د . سعيد رمضان في أوائل الخمسينيات.

كان أستاذنا البهي الخولي عليه رحمة الله يكتب فيها باباً تحت عنوان «مع العارفين » ينتقي فيه رجلاً من أسلافنا العظماء ويعرض سيرته العطرة

بطريقة مميزة تركز على جوانب القوة في أخلاق الرجل ، وتظهر القيم المشرقة في سلوكه ويربط ربطاً جميلاً بقيم القرآن وآفاق النبوة المطهرة ، وممن لا أنساهم في هذا الرعيل العظيم من أسلافنا الصالحين العارف بالله عتبة الغلام .

كان عتبة شديد التواضع جم الأخلاق ، خرج يوماً مع جمع من تلامذته إلى رحلة بالبحر ، حتى إذا ركبوا السفينة ومضت بهم بعيداً عن اليابسة يكتشف البحار أن في قاع السفينة خرقاً ، و ينظر فيمن حوله من الركاب ليجلسه فوق الخرق حتى يمنع الماء من دخول السفينة ..وإذ هو يقلب النظر بحثاً عن أقلهم شأنا وأهونهم على الناس .. فيختار عتبة الغلام للمهمة .. وتشراب أعناق تلامذته نوداً عن أستاذهم ، فيشير إليهم أن يسكتوا ويتقدم للمهمة فرحاً مسروراً .

وفي يوم من أيام الله .. وقد نادى المنادي أن ياخيل الله اركبي ... فيتقدم الفارس عتبة ، وكأنما أحس بدنو أجله وأن هذا آخر عهده بالدنيا ، فيدعوا الله دعاء محباً جميلاً .. يقول : اللهم احشرني في حواصل الطير وبطون السباع .

يقول الذين كانوا معه : لقد بحثنا عنه في أعقاب المعركة فما عثرنا على أثر .

يمثل عتبة والذين آمنوا معه والذين اتبعوه بإحسان أناساً يحيون حياة طيبة ويتركون من ورائهم إنسانية مؤمنة ويملأون جو الحياة بأريج إيماني رائع ... ذلك أنهم يعلمون أمثالنا أن كل جاه لايتصل بالله فهو جاه كاذب ، وأن ذروة

الجاه أن تكون في معية الحق الذي يأمرك أن تتواضع لليتامى والمساكين والضعفاء وأن تنتصر لهم في معركتهم مع الباطل .

يقول جاكسون عن حسن البنا :

«لقد أفلت حسن البنا من الغوائل الثلاث : غائلة الجاه ، وغائلة المال ، وغائلة المرأة . وهذه هي الغوائل الثلاث التي يسلطها الاستعمار على أذنابه ليسهل بعد ذلك قيادهم » وصدق الله العظيم : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) (سورة فاطر من الآية ٩) .

ولعلنا ونحن ننظر في أنفسنا ومن حولنا نكتشف بسهولة غائلة المال وغائلة المرأة ، ولكننا لاننتبه كثيراً إلى غائلة الجاه ، وكيف تعمل على تدمير العلائق بيننا وتنتهي دائماً بمن لا يتعامل معها في نفسه كغائلة يجب مقاومتها ... تنتهي إلى الخطيئة الكاملة .

وربمايملك الرجل إمكانيات الجاه بما حباه الله من تفوق وعبقرية في مجال نافع للناس .مثل هذا الرجل الموهوب لا يطلب منه ربه إلا أن يسخر ماأتاه الله في طاعته وأن ينزع من نفسه المقولة القارونية « إنما أوتيته على علم عندي »وأن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة وأن يحسن كما أحسن الله إليه ، وألا يبغي الفساد في الأرض .

والحقيقة أن مثال قارون يجب أن يكون في العقل الباطن لكل مؤمن كمثال

لرجل آتاه الله جاهاً عن طريق المال فعتى عتواً كبيراً . فخسف الله به وبداره الأرض ، وما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

ولكن تشتد المصيبة فيمن لا يملك إمكانيات الجاه ثم يشتعل في صدره حريق شوقاً إليه .

من مثل هؤلاء يصطاد الاستعمار أعوانه وأذنابه ، ويمثل هؤلاء يسعى الشيطان لتحطيم القيم العليا في المجتمع ، وكما قلت من قبل أن شيطان الجاه في نفس الإنسان يتدرج به في سبيل هذا الجاه من ذنب إلى ذنب حتى يورده كل الذنوب ويصل به لامحالة إلى الكبائر ... إلا أن تدركه عناية الله فيسعى جاهداً إلى مقابلة هذا الشيطان ومنازلته في ساحة نفسه .

والجاه في حياة الحركات جد خطير ....

وإن الحركات الاجتماعية التي تستعرض جاهها من مدخل الزهو به والركون إليه هي حركات قارونية .. أصابها الداء القاروني اللعين إذن « إنما أوتيته على علم عندي »

وأستشعر أحيانا في كتابات بعض قادة الحركات الشهيرة هذه القارونية المقززة والتي تصرفهم أن يتواضعوا مع غيرهم من العاملين في الجماعات الصغيرة والتي لم يبلغ جاهها بين الناس شأواً بعيداً ...

كنت أقرأ مع الأخ الكبير المستشار طارق البشري مقالاً لأحد القادة يتحدث فيه عن حركته وحركة الآخرين فعلق شيخنا طارق يقول : هذا القائد

يقول لأصحابه لا يلتفت منكم أحد لغير أصحاب الشعارات الإسلامية ، ويقول لأصحاب الجماعات الأخرى من غير حركته : اسجد واقترب .

شعور بالجاه يؤدي إلى الهلاك وندعو الله أن يبرأ منه صاحبه .

وأقارن ذلك بموقف حسن البنا - الإمام والقائد - عندما جاءه صديقه الأستاذ أحمد حسين (زعيم مصر الفتاة) مداعباً إياه بقوله : « إيه ياشيخ حسن ... ياسيدي أخذت كل الشعب المصري معك في جماعة الإخوان ولم تبق لنا أحداً ....»

فيجيب البنا العظيم :- « إيه ياأستاذ أحمد .... أنسيت أني عضو معك في مصر الفتاة .. ومن ثم فكل من معي من الإخوان هم معك أيضا » .

إن إظهار القوة مطلوب في مواجهة أعداء الله المتربصين بك والذين يقاتلونك ويبغون فينا الفتنة .. ولكن لين الجانب على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة فرض عين على الجميع عندما يتعلق الأمر بقومك الذين تريد إصلاحهم وتربيتهم ....

وهذا النبي الأمي سيدي وسيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام يدخل مكة يوم الفتح ، ومعه الجاه كله .. نصر الله وفتحه ... ولكن رأسه تكاد تمس عنق بعيره .. كما تقول كتب السيرة ... تواضعاً لله عز وجل ، وإعطاء الفضل لصاحب الفضل .. رب العزة جل وعلا . ويقول أبوسفيان للعباس عم الرسول وهو يرى هذا المجد العظيم :

ياأبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، فيقول له العباس : إنها النبوة ياأباسفيان فيتمتم أبوسفيان : نعم إنها النبوة .

وفي العمل الحركي أعرف قوماً يحبون أن يعرف عنهم أنهم غارقون في الأعمال السرية الهامة ويستشعرون بذلك لذة وجاهاً كاذباً ، فإن كان ما يفعلون لا يحتاج إلى سرية جنحوا به إلى السرية . وما يزالون يفعلون ذلك حتى يوهموا الناس بما فيهم أجهزة الأمن أنهم يقومون بعمل جليل وخطير وسري ... وربما أدى حب هذا الجاه الوهمي إلى تتبعهم واعتقالهم وربما قتلهم .

ويظل دائماً المنهج القرآني هو الحق بالنسبة للأفراد والجماعات ممن حباهم الله بالجاه .

لا تفرح ...فإن الله لا يحب الفرحين .

وأن نبتغي فيما آتانا الله الدار الآخرة .

وألا ننسى نصيبنا من الدنيا .

وأن نحسن كما أحسن الله إلينا .

وألا نبغي الفساد في الأرض .

وبالنسبة للذين لم يؤتوا نصيبا من الجاه فليعلموا أنه :

«من كان يريد العزة فلله العزة جميعا»

ومخلب الجاه هذا تستخدمه القوى الدولية في توجيه كثير من صغار المسؤولين إلى وجهتها .

ففي كثير من شعوب العالم الثالث تصبح المسؤوليات العامة ومنها الوزارة عبئاً على أصحابها إن كانوا من الذين لا يمدون أيديهم إلى المال العام ... ولمثل هؤلاء يزين الهوى الاستعماري طريق المؤسسات الدولية ذات الرواتب الضخمة والجاه الدولي ليأووا إليها بعد رحيلهم من مواقعهم القوية .. ولذلك تعجب من سهولة استجابتهم لمثل هذه المؤسسات وهي تملي على الأمة شروطها وتضع عليها قيودها .

في أواخر السبعينيات زرت الصين الوطنية ، وطوفت في كثير من معاهدها العلمية الفنية ، وهالني هناك أنهم يطبعون الكتب العلمية العالمية دون إذن من المؤلف أو الناشر .. وقد فسروا ذلك بأنهم رفضوا كل المحاولات الدولية عن طريق اليونسكو ليدخلوا في اتفاقيات حقوق التأليف وكان دفاعهم بسيطاً : إن ثمن أي كتاب من هذه الكتب الغربية لا يقدر عليه الأساتذة فضلا عن الطلاب .. وهذا الغرب لا يرقب فينا إلا ولا ذمة .. يستعمر العالم ويسرق إمكانياته .. ثم يصنع مؤسسات ليحرمنا من حق الحياة ..

وتستطيع أن تناقش المنطق حينئذ ولكنك لا تقدر أن تفسر أنه في اجتماعات وزراء التعليم في عالمنا العربي التعيس وفي الفترة نفسها تقريباً لم يُتخذ قرار ذو بال إلا اشتراك جامعة الدول العربية ومن ورائها من شعوب مغلوبة على أمرها في اتفاقيات حماية حقوق التأليف .

وأيامها بحثت في منشوراتهم عن قرار آخر ذي بال فما وجدت إلا هذا القرار العجيب .. وكان أولى بهم وهم الضعفاء والمساكين ألا يدخلوا في مثل

هذه الاتفاقيات ، وأن يتركوا الغرب يطبع كتبنا ومنشوراتنا كما نفعل معهم معاملة بالمثل ..

ولكن قاتل الله الجاه الكاذب ، فمواقعنا القومية حبلى بهؤلاء الذين ينتظرون أن يفرغوا من هذه المواقع حتى تحملهم المؤسسات الدولية إلى مواقعها .

ومنهم من هلك . ومنهم من ينتظر . ولقد بدلوا تبديلا .

٤ ـ ٢ ـ التطفيف الاجتماعي

إن ظاهرة التطفيف في عالم الأعمال والقيم هي الامتداد الطبيعي للتطفيف في عالم الأشياء . والقرآن يقول : « ويل للمطففين » هؤلاء الذين يزنون بميزانين ويكيلون بمكيالين ، فإن اكتالوا على الناس يستوفون .. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ويعطي اللفظ القرآني « اكتالوا على » أنهم في الجانب القوي المسيطر ...

وفي عالم الأعمال والقيم نجد ظاهرة التطفيف الاجتماعي تسود علاقات كثير من البشر .. فهم إن تكلموا عن أعمال الغير وزنوها مقارنة بأعمال عمر أو أبي بكر ، وإذا وزنوا أعمالهم قارنوها بأعمال أبي جهل ... وهم إن وزنوا أنفسهم كجماعة أسرفوا في تقديس أنفسهم وإنجازاتهم وإن وزنوا جماعات أخرى بخسوهم حقهم ...

وفي كل مرة يزنون أو يكيلون فإنهم يخسرون ....

إن التطفيف الاجتماعي مرض خطير لا يمكن أن يصاحب الاستعلاء

النفسي . فنحن نستعلي بالحق على شهواتنا وعلى ملذاتنا وعلى أطماع أنفسنا . ولكن لا نستعلي بالباطل على أهلينا ...

وإن استعلاءنا بالحق على شهواتنا ومآرب الدنيا سوف ينير الطريق للناس إلى جوهر الرسالة التي صاغنا ربنا عليها .

٥ ـ التصديق بالحسنى

إنه ينبغي أن نصبر في معارك البناء مصدقين أن (**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**) (سورة يونس من الآية ٢٦) ومصدقين أن (**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**) (سورة البقرة من الآية ٢٦٨) إن هذا الإيمان بالحسنى هو زاد المؤمن الصابر في موقعه الذي لا يسعى إلى زيادة دخله في الدنيا بأي طريق .

إنه لو استقر هذا الإيمان في قلوب الناس ماالدفعوا إلى شركات توظيف الأموال دون أن يعلموا ماهي المشاريع التي ستعود على الأمة بالخير .

ولو استقر هذا الإيمان في قلوب الناس ما تركوا مواقعهم في أمتهم وذهبوا وراء نهر طالوت وقد أمروا ألا يشربوا منه إلا من اغترف غرفة بيده .

إن التصديق بالحسنى هو أحد عناصر مثلث حضاري رباني أضلاعه هي العطاء والتقوى والتصديق بالحسنى . هذا المثلث يؤدي لامحالة إلى اليسرى : (**فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى**) (سورة الليل الآية ٥ ، ٦ ، ٧) .

ما الذي يفرق إنساناً عن إنسان ؟ وما الذي يفرق مجتمعاً عن مجتمع في التفاعل الحضاري المثمر ؟

الإجابة هي في القدرة النفسية والاجتماعية على الدأب والإنابة- (**إن إبراهيم لحليم أواه منيب**) (سورة هود الآية :٧٥) إن خير الخاطئين التوابون .

وفي بناء النظم الحضارية تحتل قضية الفكر الأواب مركز الثقل ، فالاعتراف بالقصور الإنساني في معرفة دقائق النظم والمتغيرات المستقبلية أمر بالغ الأهمية ، ومن ثم فإن تصميم نظم حضارية كاملة أمر بالغ الصعوبة ، ولذلك ينبغي أن نتعرف على طرائق لقياس مخرجات أي نظام ومقارنة ذلك بالأهداف المرجوة من هذا النظام ثم استخدام طرائق لمحو الزيغ بين المرجو والأمر الواقع .

هذه الفكرة القرآنية الأصيلة غائبة تماماً عن حياتنا التنظيمية . كل نظمنا دائمة على عروشها المنهارة بأعمدة واهية من دستور بشري يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه ، وهي نظم لا يدلنا على موتها شيء حتى دابة الأرض التي تأكل أعمدتها ، وتدعها تعمل حتى الكارثة تلو الكارثة ولا نفيق .

أي أننا والعياذ بالله لا نفيق حتى بالكوارث ، وحتى إذا أفقنا على حجم الكارثة دبر لنا الاستعمار مجموعة من الحلول التي تزيد الكارثة وزينها لنا تزيينا ، فالتعليم المنهار والذي ينبغي أن نعيد النظر في كل أنظمته والتي بدأنا

نتنادى بإصلاحه فإذا نحن بالبعض يتنادى معنا وبذكاء شديد وباسم التكنولوجيا والإصلاح التكنولوجي محاولين لوي الدعوة الإصلاحية بعيداً عن الحل القاصد متوجهين إلى حلول لا تزيد منظومة التعليم إلا بواراً .

وأنظر إلى مصير بني إسرائيل عندما فسقوا واعتدوا في السبت ، فلقد انتقلوا من مرحلة لأخرى عبر سبعية اجتماعية ... انتقلوا من الفسوق إلى الإبتلاء إلى التذكير فالنسيان ثم العذاب وانتهوا إلى العتو فأصبتهم «القردنة» أو المسخ الكامل والإخفاء .

(واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عن ما نهو عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) (سورة الأعراف الآيات من١٦٣ - ١٦٦)

لقد فسدت كل أدوات الإحساس الحضاري لديهم فلم يفيقوا بالابتلاء ولم يفيقوابالتذكير ولم يفيقوا بالعذاب .. فهل يجزون بعد ذلك إلا بالمسخ والفناء؟

٧ - ازدواج العلم والأمانة

قلنا من قبل أننا نحتاج إلى أن نشحذ الهمة الحضارية للأمة ، نشحذ همم

الناس لينطلقوا إلى أعمال يجيدونها مزودين بالأمانة والإخلاص .

ومن المصائب والكوارث التي أصابتنا أن ينطلق الناس إلى أعمال لا يجيدونها ويدفعون عنها من يجيدها وكل ذلك يتم في إطار وطني أو أخلاقي مزعوم . يذكرني ذلك بضابط أمن جزائري رافقني فترة عملي في الجزائر في أوائل السبعينيات وقد سألته مرة عن طبيعة عمله من قبل فقال : كنت عميداً لكلية الطب وأردف قائلاً : والله كانت تمشي كعقارب الساعة . انضباط تام .

إنه ينبغي أن نربي الناس على أن الذي يتولى عملاً وهناك من هو أجدر منه بهذه الولاية فهو آثم آثم آثم ..آثم في حق أمته ، وفي رأيي أن درجة إثمه هذه تصل إلى الكبائر الحضارية ، نعم الكبائر الحضارية التي تحتاج إلى فقهاء حضاريين لتعريفها بعد أن اختلط الإثم بالمعروف في علوم الحضارة .

وفي قصة يوسف عليه السلام (**قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**) (سورة يوسف ـ آية ٥٥) وهنا لا إثم أن تطلب ولاية عمل تعرف تماماً أنك كفء له وأنه بدونك لن يتم وان حيادك عن طلب الولاية قد يؤدي إلى كوارث متلاحقات ، وموقف الصديق والفاروق خير شاهد على ذلك فيما تلى وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنظر رحمك الله إلى كلمة (إجعلني على) أي أعطني السلطة لنعلم أن في ميدان الأعمال الحضارية نحتاج إلى مثلث حضاري : السلطة والعلم والأمانة .

وتحضرني قصة رئيس وزراء إحدى الدول الذي كانت تحوم حوله الشكوك حول عمله لصالح دولة عدوة .. ورغم المراقبة الدقيقة فلم تكتشف أجهزة الدولة

عليه ما يدينه .فلما دنا أجله وأيقن من الموت سألوه : الشك فيك يصل إلى اليقين ورغم ذلك لم نستطع أن نحصي عليك شيئا ، فقال: إن العملية في غاية البساطة ، كُلِّفْتُ أنه كلما اخترت رجلاً لمهمة معينة ، اخترت أسوأ الرجال المحتملين لهذه الوظيفة إن هذا السلاح أفظع من أي حرب تشنها الدولة التي أعمل من أجلها على البلد

الفصل الثالث

مقدمات في التنمية الثقافية للأمة الاسلامية

تمهيد

كنا في معارك الصبا نجادل إخواننا العلمانيين حول الثقافة فنجنح بها إلى مزيد من الإغراق في التراث كرد فعل لإغراقهم مضامينهم الثقافية في الأبعاد الترويحية أو تقديسهم للوثنية التاريخية .

فلما اشتد العود الثقافي برحمة الله و تأيناً عن معارك ردود الأفعال تبين أن دور الثقافة في الأمة طيف ذو سبعة عناصر : -

١ - فالأمة تحتاج أولا إلى ثقافة لتقوية النسيج الاجتماعي مرتكزة على البعد الإيماني و البعد المصلحي .

٢ - ثقافة تعين على تقبل المفاهيم التنموية .

٣ - وتحتاج الأمة لثقافة ترويحية تعين المؤمن المكدود على تحمل كدح الحياة .

٤ - كذلك تحتاج الأمة لثقافة لتبيان موقف الإسلام من قضايا الحياة .. إبتداء من الفرد ومروراً بالجماعة و الأمة .وإنتهاء بالكون .

٥ - وهي تحتاج كذلك إلى ثقافة لشحذ الفعالية الروحية عند الفرد حتى يصبح ذا همة حضارية و توجه إصلاحي .

٦ ـ وهي تحتاج أيضاً إلى ثقافة لتقوية المنهج العقلي الإسلامي عند المثقفين وصانعي القرار .

٧ ـ كما تحتاج إلى ثقافة لبيان التحدي الحضاري الذي يواجه الأمة وإسقاط ذلك على دور الفرد .

والحقيقة أن التخطيط الثقافي لهذا الطيف السباعي يمثل تحدياً عظيماً للتيارات الإصلاحية لا أحسب أنهم قد أعطوه حقه .. ناهيك عن الحكومات ووزراء ثقافتها ومخططاتهم الثقافية الهزيلة التي يصب معظمها في الترفيه والسياحة التاريخية . إن تخطيطاً ثقافياً محكماً يسرع بخطى الأمة نحو أهدافها العظيمة ، و يسهل مهمة القيادة الحكومية في الوصول إلى أي هدف تنموي مرجو .

وليست مهمتنا أن نضع المخطط كاملاً بكل تفاصيله ، فهذه مهمة الآف من رجال الفكر والثقافة ، و لكن حسبنا هنا أن نضع بعض العناصر الهامة لهذا المخطط ، ثم نطرح هذه العناصر على أهل الفكر والثقافة ليدلي كل بدلوه وتتفاعل الأفكار والمحاولات حتى تصل في النهاية إلى المخطط المرجو .

ولابد أن ندرك أن هناك مسافه زمنيه بين مخطط ثقافي للأمة وبين الترويج لهذا المخطط بين المثقفين والفنانين والأدباء والشعراء حتي تصبح أعمالهم الإبداعيه تحقيقاً لأهداف هذا المخطط الثقافي وترجمة ابداعية لمقاصده وأهدافه. هذه المسافة الزمنية تنقص أو تزيد بقدر ما نجد ونكد ولكنها تظل موجودة . ولن تتغير ثقافات الناس في يوم وليلة ولكن للأمر سننه التي فطر الله الناس عليها .

إننا نعيش اليوم مرحلة نجني فيها ثمرات مخطط ثقافي علماني أجنبي في شتى أقطار الإسلام . فمعظم الإبداع الفني هو تعبير عن ثقافة جاءتنا عن طريق مخططات سبق أن أشرفت عليها أجهزة علمانية سواء في عهد الاستعمار الظاهر أو فيما تلاه من عهود علمانية .

ولقد أخر ظهور إبداع فني ثقافي إسلامي إنشغال العمل الإسلامي بقضايا التحرير الوطني ، و تردد كثير من العاملين أمام استخدام بعض الوسائل الجديدة في التعبير الفني كالمسرح والسينما .

ولكن الأمر جد لا هزل فيه و ينبغي على الأمة أن تأخذ زمام المبادرة في أمر ثقافتها وأن تنطلق في تربية الكوادر الفنية اللازمة لإفراز المبدعين في كل المجالات الثقافية ، و أحسب أن هذا من التحديات التي تواجهنا كأمة و كتيار إسلامي جديد .

ماهية الثقافة

ولابد لنا في هذه المقدمات من أن نحدد ما هية الثقافة ، فالثقافة هي مجموع المواقف العقلية للإنسان من كل ما يحيط به من علاقات و أحداث ، فعلاقتك بالمرأة تحددها مجموعة من المواقف ، موقف نفسي و موقف عقلي وموقف عملي . الموقف العقلي يشكل ثقافتك عن المرأة ، وربما كان هذا الموقف يعتبر المرأة أمة تستعبد ، بينما تجسد كمية العاطفة و الوله و العشق عندك لإمرأة تهواها موقفاً نفسياً مغايراً لما يفرضه موقفك العقلي أو ثقافتك ... وربما كان موقفك العملي مغايراً لموقفك العقلي وموقفك النفسي .

بعض الناس يعرف الثقافة على أنها مجموع كل المواقف العقلية و النفسية والعملية للإنسان ، و لقد رأينا أن نعرف الثقافة على أنها المواقف العقلية للإنسان من كل ما يحيط به من علاقات و أحداث فإن أصر القارىء على التعريف المخالف فعليه أن يترجم كلمة الثقافة في هذه الورقة على أنها الجزء العقلي من الثقافة .

وكلما بعدت ثقافتك عن الفطرة كلما زاد الصراع و التمزق بين مواقفك لعقلية و النفسية و العملية . فالرجل الذي يؤمن بالزواج من واحدة وهو في سعة نفسية مع زوجة ترضيه سرعان ما تصطدم ثقافته الموحدة في الزواج مع ميله النفسي إلى إمرأة أخرى ، و من العجيب أنك تجد الإنسان الغربي الذي يجادلك و يكثر من المجادلة وهو يحدثك عن تعدد الزوجات في الدين الإسلامي ، هو أكثر الناس في العالم تعددية في الزواج ، حيث يحتفظ أمام القانون بزوجة و احدة بينما يعدد بأكثر من أربع من وراء ستار و بغير ضوابط و ضمانات تحفظ الحقوق و تقيم الواجبات .

و الحقيقة أن هذا الإنسان قلل من حدة الصراع بين عالمه العقلي ممثلاً في ثقافته و بين عالمه النفسي بإضافات خفية أضافها إلى ثقافته . فالمسيحية وما تمثل من قيم وأفكار لم تعد هي المصدر الأساسي لثقافته ، وإنما أضاف إليها عالماً جديداً من الأفكار أزاحت المسيحية إلى ركن قصي من عقله ، و تربعت هي تمسك بمقوده . و احتفظ لنفسه بنوع هش من السلام الداخلي .

و نؤكد أن السلام الذي يتبنى على التناغم الكامل بين عالم النفس و عالم العقل وعالم الفعل هو السلام المستقر البناء .

فيستطيع إنسان أن يبني عالم غيب [1] لثقافته لا يتناغم مع الفطرة التي فطر الله النفس البشرية عليها و أن تحيط به ظروف خارجية و نفسية تمزقه بين عوالم نفسه و عقله و فعله .

ومن هنا يأتي دور الوحي الذي يحدد غاية عظمى للوجود الإنساني ....إليها تصعد كل الغايات الصغيرة للإنسان و تنتهي عندها .

و يحدد قيماً عملية في الحياة لا تصطدم بالعقل ولا تقهر النفس و هي قابلة للتجسد في حركة الناس ، ثم يقيم الحجة على الناس بأن يبعث لهم من أنفسهم بشراً تتمثل فيهم هذه القيم غاية التمثل .

و عندما نتحدث عن الثقافة أو عالم الغيب العقلي للإنسان إنما نتحدث عن خريطة المواقف العقلية من كل ما يحيط من علاقات و أحداث ، ولا نتحدث عن هذا الركام الضخم من المعلومات المتناثرة التي تزدحم بها وسائل الإعلام و تلح بها على عقل الإنسان حتى تفقده الوجهة و السبيل ، وتدعه حائراً أمام كل موقف ، ذاهلاً أمام كل حدث .

---

(١) سيجدني القارئ استخدم مصطلح «عالم الغيب» كثيراً في ثنايا كتاباتي المتعددة . ولقد وجدت ضياباً حول المصطلح عند مجموعة من إخواني المفكرين رأيت معه أهمية تحديد ما أعني بهذا المصطلح . «الغيب» في العقيدة الإسلامية معروف ومحدد وهو الأساس والجوهر للدين كله . ولكن تنشأ عن هذا «الغيب» والإيمان به مجموعة من البديهيات تكون معه ما أسميته «عالم الغيب» أي الغيب وما ينشأ عنه من بديهيات ، هذه البديهيات هي في الواقع القيم العليا في التفكير الإسلامي . فأن تعتقد بحرمة الربا والاحتكار وأن تؤمن بأن للناس حياة في القصاص إلى غير ذلك من القيم في الواقع عناصر في عالم الغيب . ولقد حاولت أن أضع تصوراً لعالم الغيب في عناصرها الأساسية في كتابي مقدمات البعث الحضاري .

إننا لسنا في حاجة إلى إنسان متورم بكم هائل من المعلومات لا يستطيع أن يفعل بها شيئاً في أي موقف عملي . و إن وسائلنا التربوية الثقافية ينبغي أن تركز على تزويده بالقوانين الأساسية و المعلومات الأولية و القدرة على الرجوع إلى المعلومات في مراجعها من غير أن ينوء بحملها في طبقات عقله المكدود .

إن هناك فرقاً هائلاً بين التورم الثقافي و بين البصيرة العقلية الحديدية التي حُد فيها بصر الإنسان العقلي بما يحمل من عالم ثقافي شديد الوضوح إزاء كل العلاقات و الأحداث .

إننا لسنا في حاجة إلى حمار يحمل فوق ظهره أسفاراً ، و إنما نحن في حاجة إلى معرفة نافعة و علم نافع .

إننا من أبناء حضارة تدعو ربها :« اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع » . وأحسب أن من المهام العلمية التي ينبغي أن ينفر إليها نفر من علمائنا مهمة غربلة التراث و تركيزه أشد التركيز في صحيفة تراثية واضحة المعالم [1] ، فلا

---

(١) وقد دعى الإمام الشهيد حسن البنا إلى هذا الأمر منذ أكثر من خمسين عاماً ، ووجه نداءً إلى علماء المسلمين « أن يألفوا لجاناً فنية لتهذيب الكتب الإسلامية القديمة ، وتصنيف كتب جديدة تفي بحاجة العصر الجديد» ولكن الملاحظ للأسف ـ أن الاستجابة لهذا النداء الحضاري لا تزال دون المستوى المرجو فأغلب الجهود مركزة على تحقيق وإعادة طبع كتب التراث دون إعمال فضيلة النقد فيها ، أو حتى محاولة ترتيبها ترتيبا جديداً وتقريب فوائدها من جمهور القراء والمثقفين .

ودعوة الشيخ البنا إنما كانت لتيسير التراث الخاصة أما العامة ونقصد بهم غير المتخصصين في العلوم الإسلامية فيكفيهم أن نحمل إليهم عصارات التراث مركزة في مبادئ وأمثلة عملية حتى لايشقى طول حياته بحمل هذا التراث الضخم الذي لايقوى على حمله أشد الرجال .

يمكن أن تنطلق أمة من هذا التراث المتراكم بعضه فوق بعض إلا بعملية غربلة و تركيز . ونحن معاشر الإسلاميين نبدأ مسيرتنا في الحركة من خلال بناء مكتبة تراثية هائلة لكل منا ، و المطابع تطبع ، و الناشرون ينشرون ، ونحن لا نقرأ ، و إذا قرأنا فلا نستفيد بما نقرأ ؛ فمن الذي يقرأ كل هذا التراث الذي يمثل فترات تاريخية متباعدة و متباينة و يبدو في ظاهره أن بعضه ينسخ البعض الآخر .و لذلك ، و حتى تتم عمليات الغربلة و التركيز ينبغي أن يتوجه الشباب إلى القرآن بصفة أساسية ثم إلى الحديث الذي لا خلاف عليه ، ثم ينظرون بعد ذلك في بعض كتب الأثر يعرضونها على الأصل في غير حسم عقلي قد يضبب أبصارهم .

و فيما يلي من صفحات سأعرض بإيجاز الهيكل الداخلي للثقافة المرجوة للأمة و قد حددته في طيف سباعي .

تفصيلات لأطياف المخطط الثقافي السبعة

١ - في مجال التخطيط الثقافي لتقوية النسيج الاجتماعي ينبغي النظر في بضعة أمور :-

- أولا ينبغي أن تدرس بدقة كل الخيوط التي تكون نسيج الأمة سواء كانت خيوطاً عرقية أو طائفية أو اقتصادية أو ثقافية ، و يدرس أيضا مدى الاختلاف و الوحدة بين كل هذه الخيوط و هل هناك تباين حقيقي يمثل مشكلة أم أن التباين شكلي . خاصة و أن كثيراً من الاختلاف يبنى على أوهام قد تكون سائدة بين الجهلة و يمكن تجاوزها بالتثقيف .

ـ ثم لابد من توهين الصراع التاريخي ما أمكن بإلقاء الضوء على وهن الروايات التاريخية و ضعف و سائل التأريخ في القديم و الحديث .

وكذلك لابد من تعميق الفهم لعناصر التحدي الحضاري في الحاضر والمستقبل حتى يستشعر الفرقاء أهمية التوحد في العمل الحضاري المشترك والتبصر بمداخل الشيطان لإيجاد الفرقة و توهين النسيج الاجتماعي (سواء كان هذا الشيطان داخلياً أو خارجياً)

ولابد أيضاً من تقوية الجوانب الأخلاقية التي تقوي النسيج الاجتماعي مثل السماحة و الإيثار و البذل و كظم الغيظ و العفو عند المقدرة .

٢- في مجال التخطيط لثقافة تعين على تقبل المفاهيم التنموية والتي تستدعي عند الفرد موقفاً من عمليات الإشباع ينبغي أن تركز على بضعة أمور منها: ـ

ـ أن هناك أنواعا من التنمية تختلف في أهدافها ووسائلها عن التنمية في المفاهيم الغربية ، وأنه ليس علينا من حرج أن نحدد تنمية قاصدة تتناسب مع عقيدتنا و ظروفنا و أن تكون هذه التنمية مختلفة عن التنمية الغربية شكلا وموضوعاً . وأن التنمية التي يفرضها الغرب على حكوماتنا تزيد من تخلفنا وتبعيتنا له ، وليس مقصوداً بها الانعتاق من التخلف أو الانعتاق من الاستعمار بل مقصود بها زيادة التخلف وإحكام القبضة الاستعمارية .

ـ أن إعمار الأرض فرض على المجموع ، والإعمار بأيدينا لا بأيدي الغير .

ـ أن الانتشار في الأرض فضيلة إسلامية، و الاكتظاظ مكروه لما يؤدي إليه من مكاره.

ـ لابد أن ندرك أن التهيىء لعمل من الأعمال التنموية يستدعي تدريبا وتعليما .. فالتنمية ليست بالأماني و إنما بالتدريب و التعليم .

ولابد أن ندرك أن البيئة خلق من خلق الله نتعامل معها بإحسان .

٣ـ ثقافة ترويحية تعين المؤمن المكدود في دروب الحياة . هذه الثقافة الترويحية ينبغي أن تركز على الأمور الآتيـة :

ـ الإيمان بأن الإنسان في هذه الحياة الدنيا في اختبار دائم إما بالنعم أو بالحاجة وضيق الرزق ، هذا الإيمان من شأنه أن يحرر الإنسان من الهم القاتل أو الفرح المفضي إلى التهلكة، و يحرره كذلك من هم التكاثر الذي سوف يفضي به إلى الجحيم في الدنيا والجحيم في الأخرة (**لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين**) (سورة التكاثر) . ويقول حجة الإسلام الإمام الغزالي في رسالة : منهاج العارفين « إن الخلق بين فتن و محن ؛ إما مبتلى بالنعمة ليظهر شكـره وإما مبتـلى بالشـدة ليظهر صبره » ، قال تعالى : (**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه و نعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولاتحاضون على طعـام المسكين**) (سورة الفجر :الآيات ١٥ـ١٨)

ـ الإحساس بالجمال عن طريق تشجيع الإنسان على التدبر و التأمل فيما حوله من جمال طبيعي أخاذ (**ولكـــم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون**) (سورة النحل : الآية ٦) .

ـ الاستغراق النفسي و الروحي بالعبادة (أرحنا بها يابلال).

ـ الرياضة الجماعية و السمر الجماعي في تنافس صحي.

ـ سائر الفنون كوسائل للتعبير عن محاكاة للواقع و تمثل له بحيث يستغرق الإنسان في تجربة وهمية لكن واقعية . لعلنا نورد نصاً لابن حزم في قضية الغناء نستدل به على أن كل فن ينوي به العبد أن يذهب به عن نفسه السأم والكلالة و الملل لينشط في عمارة الأرض هو فن حلال ما دام يؤدي وظيفته في تنشيط الإنسان من غير معصية و ما دام صاحبه لا يعتبره شعيرة من شعائر الدين يلزم بها نفسه أو يلزم بها غيره .

يقول الإمام ابن حزم في رده على الذين يفسرون (**ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين**) (سورة لقمان الآية ٦) بأن المراد من اللهو هو الغناء ، يقول (إن نص الآية يبطل احتجاجهم بها لأن هذه الصفة من فعلها كـــان كافراً لا خلاف ،إذا اتخذ سبيل الله تعالى هزواً . ولو أن امرءاً اشترى مصحفاً ليضل به عن سبيل الله ويتخذها هزواً لكان كافراً ، فهذا هو لهو الحديث ليتلهى به ويروح نفسه ، لا ليضل عن سبيل الله تعالى . وكذلك من اشتغل عامداً عن الصلاة بقراءة القرآن أو بقراءة السنن أو بحديث يتحدث به

أو ينظر في ماله أويغناء أو بغير ذلك فهو فاسق عاص لله تعالى . ومن لم يضع شيئاً من الفرائض اشتغالاً بما ذكرنا فهو محسن) و أحيل القارىء إلى كتاب (الإسلام والفنون الجميلة) للأخ الدكتور محمد عمارة ففيه شفاء هذه المسألة .

ـ السير في الأرض ورؤية الآثار للأمم الغابرة .

ـ تشجيع الآداب من قصة و شعر ونوادر .

٤ ـ ثقافة لتبيان موقف الإسلام من قضايا الحياة إبتداءً من الفرد مروراً بالجماعة والأمة .. وإنتهاءً بالكون.

إن توحيدالنظر في هذا النوع من الثقافة بحيث تتوحد توجهات الناس في مجموعها في وجهة واحدة مع اعترافنا بالاختلافات الضرورية التي تقع بين الأفراد و الجماعات لمن الأمور الهامة و الأهداف العظيمة لأي مخطط ثقافي . ويشتمل هذا النوع من الثقافة على مجموعة من العناصر نلخصها فيما يلي:

(أ) الإنسان والأمانة الربانية التي عرضت عليه و استخلافه في الأرض ودوره في الحياة . أما الأمانة فكأنها كل ما وهبه الله للإنسان من إمكانيات جسدية و عقلية وروحية و من بيئة محيطة بما تزخر من موارد مكنونة وظاهرة وفوق ذلك ما وهبه من حرية في الاختيار .

هذه الأمانة الثقيلة ينبغي أن تستعمل خير استعمال والإنسان معان في هذا الاستعمال بالرسالات المنزلة التي تذكره بالفطرة التي فطر الله الناس عليها و تذكره كذلك أنه مستخلف فيما بين يديه يستخدمه بإحسان فهو ليس

صاحب المال أو العقار و لكنه مستخلف فيه و هو في النهاية مطالب أن يعبد الله بإعمار نفسه و إعمار كونه .. ثم إن إلى ربك المنتهى .

(ب) حياة الإنسان جزء من رحلته الكونية التي لا يعلم أمادها و آفاقها إلا رب العباد جل و علا . ولقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، ثم خلقه ربه و جعل حياته ابتلاءً أيشكر أم يكفر ، ثم علمته رسائل السماء ـ وحي الفطرة السليمة ـ أن هذه الحياة الدنيا هي جزء من الرحلة وأن أمامه آخرة يثاب فيها أو يعاقب ويدخل فيها جنة أو ناراً .

والإيمان بالآخرة هو جوهر هذا الدين ، (**و إن تعجب فعجبٌ قولهم أءذا كنا ترابا أءنا لفي خلقٍ جديدٍ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**) (سورة الرعد الآية ٥) فالكفر بالآخرة يورث الكفر بالله ويدفع الإنسان لعبودية الشهوات التي تضع كل يوم في رقبته غلاً جديداً وتنتهي حياته و قد كسب من السيئات ما يورده جهنم في الآخرة . ومن هنا فإن تعميق الإيمان بالآخرة هو مفتاح التدين .

(جـ) النساء شقائق الرجال .. ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة . (**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون**) (سورة الروم الآية : ٢١) . فالخلية الإنسانية الأولى تتكون من رجل و امرأة وهما كائنان متمايزان في الطبيعة و الوظيفة . هذا التمايز هو

الذي يحدث قوى الجذب اللازمة لتماسك الخلية . حتى في أبسط قضية كقضية الجنس ، لابد أن يبدو الرجل قوياً متيناً و تبدو الأنثى خاضعة حانية ولو انقلبت الآية وأصبح الرجل خاضعاً حانياً و أصبحت المرأة قوية متينة لتنافر الزوجان وانفكت الخلية . والإسلام في تشريعه كله يسعى لزيادة قوة التماسك في الخلية و ما يتشعب عنها من خلايا ملتصقة بها بدءاً بإشارات الإسلام حول العمل و الميراث و إيتاء ذوي القربى والعلاقة بين الأبـــاء والأبناء والأزواج ، ويمايز في الطبـائع والوظائف من أجل مزيد من التماسك و الترابط . ولعل هذا المدخل الفكري الذي نطرحه جدير بأن يدفع بكثير من الباحثين إلى فهم روح التشريع الإسلامي في الأسرة كتشريع يؤازر زيادة التماسك في الخلية من خلال تمايز الطبائع و الوظائف .

(د) تكوين الجماعات و القبائل و الشعوب من سنن الله في تقوية النسيج الاجتماعي و أداة من أدوات العناية الإلهية في تكوين الأجنة الاجتماعية . ولابد أن نسجل أن عالمية الرسالة الإسلامية لاتتعارض مطلقاً مع فكرة تكوين الجماعات و القبائل و الشعوب ، نحن هنا نتحدث عن آلية قوى التماسك بين الناس التي تبدأ بخلية هي الأسرة فالجماعة ثم القبيلة ثم الشعب . فكما أن الله تبارك و تعالى يأمرنا أن نبر آباءنا و نخفض لهما جناح الذل من الرحمة ونرعاهما كما ربيانا صغاراً و لم يأمرنا بنفس البر بالنسبة لآباء الجيران ، كذلك فإن الجماعة الحاضنة لنا والقبيلة الحاضنة الجماعة و الشعب الحاضن للقبيلة كلها تملك حقوق البر بها علينا . أما العلاقات داخل هذه المجموعات المختلفة فتقوم على شرائع الإسلام القائمة بالقسط بين كل البشر .

(هـ) مفهوم الأمة كوعاء تصب فيه جهود الجماعات و القبائل و الشعوب . والأمة ليست وعاءً جغرافياً وإنما هي وعاء إنساني يقوم على التوحيد الخالص لله رب العالمين ، فكل مؤمن نأت به الديار أو قربت هو عضو عزيز في هذه الأمة . كما أن الجماعات والقبائل و الشعوب لابد أن تستهدف في سعيها كياناً حضارياً تواجه به الكيانات الشيطانية القائمة هنا وهناك . فالشيطان وجنوده يسعون في الأرض الفساد .. هذه حقيقة التاريخ والواقع ومن ثم فسعي كل الكيانات المؤمنة للتوحد بصورة أو بأخرى أمر تمليه ضرورة الدفاع عن الحق والمجاهدة لإقامته على وجه الأرض[1].

(و) الكون من حولنا عوالم صديقة .. تسبح بحمد الله وتكبر .. ولاتتعامل معها إلا بإحسان .

القرآن الكريم يتحدث دائماً عن العوالم المحيطة بنا بأنها أمم أمثالنا تسبح بحمد الله و لكننا لا نفقه تسبيحهم ، ونحن نقرأ دائماً في كل صلاة : الحمد لله رب العالمين أي رب كل العوالم في الكون و الذي نحن مجرد عالم من عوالمه.

فعندما يفطن المؤمن إلى هذه الحقيقة الكونية تتأكد عنده نظرة حانية عن الكون و البيئة فلا يتحدث مثل كثير من الغربيين عن قهر الطبيعة ولكن

---

(١) راجع في هذا الكتاب فصل : الدولة الإسلامية ضرورة حضارية

يتحدث دائما عن التناغم و الاستعمال القاصد لهذه البيئة المحيطة [1] . قال تعالى : (**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون**) (سورة الأنعام الآية : ٣٨)

(ز) الاستمتاع بالطيبات مع فهم إسلامي لما هو الاستمتاع ومعاني الطيبات قال تعالى (**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**) (سورة الأعراف الآية ٣٢)

إن زينة الله تحيط بنا في هذا الكون الجميل . سواء أوعلنا اتساعاً فيما حولنا من نجوم وكواكب أو تضائلنا - بأجهزتنا الدقيقة وراء الإبداع الإلهي في عوالم الذرة ، فلسوف نرى أشعة الجمال والكمال تتهادى في بصائرنا تزيدها طمأنينة و إيماناً . هذه الزينة نتمتع بها دارسين و متأملين ومستلقين في رحابها لنتخفف من آلام النصب اليومي الرهيب . أذكر أنني التقيت برجل إنجليزي عاش في منطقة قناة السويس بمصر أيام الإحتلال الإنجليزي وسألته ما الذي يذكره من مصر .. قال السماء ونجومها ..إننا في انجلترا لا

---

(١) انظر تفسير الفاتحة «في ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب .

نكاد نرى السماء من شدة الغيوم ، أما في منطقة القناة فكنت أتمتع كل ليلة وأنا أجلس ساعات متصلة مستغرقاً في الزينة الإلهية التي تأخذ بالأبصار .

هذه هي الزينة الطبيعية التي تؤدي عملها في النفس البشرية فتزيدها هدوءاً ، أما الزينة التي تنفق عليها الأموال طاقة وجهداً و تلويثاً للبيئة لنجعلها أساور وعقوداً فهي زينة لا تملأ النفس طمأنينة وهدوءاً وإنما هي زينة للتفاخر و التباهي و لفت الأنظار ، وهي وإن كانت غير محرمة إلا أن القرآن يصفها بأنها زبد يذهب جفاءً.

و الطيبات هي كل ما أحل للمؤمن من الشهوات و الأطعمة و المسكن والملبس و غيرها ، والمؤمن يتمتع بها كلها تعبداً لله و شكراً لنعمائه في قصد واقتصاد ، ولا أعتقد أن ديناً غير الإسلام يفتتح كل نشاط من أنشطة الإنسان سواء كان طعاماً أوجنساً أوقضاء حاجة بفتتح ذلك كله بدعاء مأثور يذكر المؤمن دوماً أنه في عبادة دائمة ، حتى وهو يتمتع بالشهوة الغالية في جماعه مع زوجته .

٥- ثقافة لشحذ الفعالية الروحية عند الفرد حتى يصبح ذا همة حضارية وتوجه إصلاحي.

يلعب هذا النوع من الثقافة دوراً هاماً في بعث الهمم عند الأفراد وتوجيه هذه الهمة في توجهات إصلاحية . ولأن الفرد هو البنية الأساسية التي يقوم عليها أي عمران فإن هذا النوع من الثقافة يصبح تأسيسيا للغاية ، ولعلنا نلخص بعض عناصر هذا النوع من الثقافة فيما يلي :